الخروج إلى النبع





محمد قطب



الخروج إلى النبع

رواية

محمد قطب

لوحة الغلاف للفنان : إيلى أبو رجيلى

الطبعة العربية الثانية : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٢٥٠٢/٩٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-060-8



الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : محمد الغليونى

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

محمد قطب

الخروج إلى النبع

روايـــة

الطبعة الثانية ١٩٩٨



١

ألقت شجرة النبق ظلالها على الأرض . وكانت هى تملى حبات الثمر. غافلها القمر فتسلل جسورا إلى وجهها فضحكت . حضنت فى لهفة العاشق مزهرها ، وجرت أصابعها على الوتر فذاب الجمود ، ورقص الموج، وتمايلت الغصون ولامست حوافها النهر . سقطت حبة نبق ، مدت يدها ولقمتها . ثم فردت شعرها ومشطته . كان الشعر جدائل موج داكن. وكان القمر لا يزال يداعبها ، ويسكب ضوءه الباهر فيمتزج بألق الجبهة ، وبهاء الثغر ، ثم يمرح بالنهر فيفور الموج ويتلاطم .

فاح عطرها ومشى فى المكان . وكانت الرائحة نافذة . كانت رائحتها المفضلة ، تعصرها لها الجوارى من زهر الياسمين . تخدر المكان بالأريج فمدت ذراعيها ، واستلقت . فردت ساقيها ، مرت بكفها على جسدها .. لامست جسدها جزءا جزءا .. وبدا الجسد مبهورا .. وكان الفحيح شديدا . والانبهار طاغيا . فاتها فى لحظة التلذذ أن تدرك التسلل ..

هذا التسلل الرافض لحركة العطر وطراوة الأنفاس ودفء الجسد . لم تشعر بالتلوى . رغم أن ضوء القمر فى ذات اللحظة انعكس على حدقتى عينين ضيقتين ، استكان فيهما الانتظار حتى تحين لحظة الانقضاض ..

٢

وقف رجل فى براح السوق وحكى :

حين رآها ، كان على الشاطئ الآخر يتملى جمالها مبهوتا ومأخوذا. رصده. يتسلل إليها، يسعى إلى الدفء. ناعم التلوى، خفيف الوطء.. حرك يده وخرجت من الحركة القطة السوداء الشرسة.. أدركته ولما يلتصق بالجارية، كاد يلاصقها، كاد يصل إلى مكمن النبض ويلدغ.. وكان نغم المزهرحاديه، وزخم العطر هاديه .

غرس صبى يده فى الفراغ محتجا .

- كيف تخرج القطة من الحركة ؟

رد عليه رجل من الجمع المصغى بانفعال .

- مثلما ركب ظهر الضفدع وعبر النهر .

نهض آخر ثم قال :

- ولم لا تكون القطة موجودة بالصدفة ؟

احتد الراوى وغضب ..

- لن أكمل الحكاية ..

وهاج الجمع . سدت العيون الغضبى الأفواه ، فانسحب المعترضون .

اعتلى الراوى جذع نخلة قديم ، وبسمة انتصار فرشت وجهه كله .

- تقوست القطة وزمجرت ، وخمشت الثعبان استدار لها فلطمته بقوة، تلوى بعنف وأحاط بها .. وكان أيها القوم قد تمكن منها .

فلتت صيحة من الجمع ، وفلتت شهقة من الصبى ، وفزّت امرأة من

مكانها وصرخت :

- الجارية .!

رفع الراوى يده ، وبسط كفه .

- اهدأوا .. سأكمل الحكاية ..

- حين رآه من بعيد، من الشاطئ الآخر ، وقد تمكن من القطة ، هاج ، واحتد ، وانفعل . سلط عينه ، وسدد بصره على القطة .. ثم حرك أيها القوم يده ثانية ..

صمت الراوى ، فتعلقت به الأبصار وخفتت الأنفاس .

- اندفعت القطة تهدر ، خمشته ولطمته ، ظلت تخمشه وتلطمه ، حتى استطاعت أن تضغط بكلتا يديها على رقبة الثعبان .. ثم تمكنت منه .. وتدلى لسانه ممطوطا مدبيا .. ولكن ..

وعاود الراوى الصمت ثانية .. وعاود الجمع التعلق به .. وران الصمت والقلق ..

- ولكن .. أيها القوم ، ككل بطل يموت فى ساحة الموت .. ماتت شهيدة . لفظت القطة أنفاسها ، واستشهدت ونجت الجارية ثم قفز النهر ومضى إليها ..

هلل الجمع وصاحوا :

- من غيره ينقذها ؟!

- ومن يقفز النهر سواه ؟!

انتحى رجل من الجمع بشيخ وقور وهمس فى أذنه ..

- كيف يطالبنا الراوى أن نلغى عقولنا ؟

٣

وصل إليها ، والقطة ترتعش رعشة النهاية . مدت يديها واستسلمت . نظرتها كابية، والجفنان ينطبقان فى ثقل بطيء، وانحطت الرأس في همود ثم اختلجت بعنف، وضاع من العين البريق . أدار بصره فى المكان ، كانت الجارية لا تزال فى خدر الغفوة . ربت على كتفها فهبت فزعة .. رأته فارعا، عريضا ، ملتحيا ومبتسما . نهضت وأحكمت رداءها . طغى عليها الهول حين لمحت الثعبان.. والقطة ، ظلت تنقل البصر بينهما ، وتملكها لهاث عنيف ومتواصل ، طمأنها فأطرقت برأسها ، وحدقت فى النهر . كان الموج رخيا وهادئا ، والقمر يطلق ضحكته عبر الموج والتكسر .

نظرت إلى الثعبان ، ثم رمقته وقالت :

- أكان يقصدنى ؟

هز رأسه موافقا ..

- وقتلته القطة !

- نعم .

تناولت مزهرها بيد ترتجف وقالت :

- مصادفة غريبة .

ثبت عينيه على وجهها وقال :

- إنه الرضى .

- الرضى !

ضحكت ومرت بأصابعها على الوتر فرن ، وكان الرنين مقطوعا

ومرعوشا ، تهدج صوتها واخترقه الحزن .

- أترى أن الله راض عني؟

- بم تفسرين ما حدث ؟

- أكان يمكن أن أموت .. ؟

- كلنا نموت .

- لكنه الموت بلدغة الثعبان ؟

اقترب واخذ منها المزهر . احتضنه فتماست الأوتار واهتزت . وانثال من الوتر فرح النغم بهوم ويلف المكان . نفذ الفرح إلى القلب ، وأعداها النغم فتمتمت فى صوت موقع وكأنما تهمس لنفسها .

- فعل الله بالعاصى ما فعل .. فكيف بالمطيع ؟

ودارت فى المكان دورتين ، أحاطت جذع شجرة النبق ، قبلت فرعا تدلت أوراقه ، لامست بالقدم حافة النهر ، رن الخلخال وابتل الساق . وغرفت غرفة بكفيها ، وشربت، ومسحت وجهها ، ثم علاها ذهول مفاجئ فاهتز جسمها وما هدأ .. وأتاها البكاء ، وما استعصى ، وكان عصيا .. كان ساخنا ، وصاهدا ، وكان مريحا . تفتح الجسم . أحست أن جلدها يتمزق ، وأعضاءها تنفرج ، وشيئا ثقيلا يتسرب منها ، ودغدغة تتحرك فوق الجلد ، وتنميلا راعشا يسرى مع الدم ، واجهته بانكسار وقالت :

- أهو يدعونى ؟

- جاء الوقت .

- أطالت غيبتى ؟

- لكل شيء أوانه .

- أكنت تعرف ؟

تبسم وقال :

- لقد شاهدت .

رفعت رأسها فمسكها خيط النجم ، وتعلقت أنظارها بالسماء مبهورة ، ومذهولة ، والقمر يضحك لها ، وحبات النبق تتساقط حولها ، وموج النيل يهدر لها ، والنجوم تتزاحم فى عينيها. نطقت مشرئبة العنق .

- وجلالك ما عصيتك بعد اليوم .

قال فى لطف :

- يا جارية .. أهل الطريق يعرف بعضهم بعضا .

نطقت مأخوذة ، وعينها تتوسل الرحمة .

- أأنت هو ؟

تمهل ثم ألقى كلامه هيّنا .

- ما أنا إلا واحد يبحث عن الخلاص .

- أجئت تخلصنى ؟

قال فى أناة :

- إنما جئت لتساعدينى .

- أنا !

- نعم .. أنت .

ونبض القلب بمحبة طاغية ، فتحرك داخلها خوف من الأيام .

٤

والسوق وإن زاحمته الأشياء وعلاه الضجيج ، لم يخل من لمسة متعة ومسحة جمال . وطرحت الأشياء أمام الدكاكين ، فخلبت العين وأدارت الرءوس . هبت نسمة رخية فأزاحت همودا كان قد استولى على المكان . والسوق كانت مترعة حتى الحافة، فى الزوايا والأركان والأزقة، بغلالة من بخور لم يتلاش بعد .. فالبخور أضحى من طبيعة المكان ، بعد أن جاءه لابس الخرقة وصاحب الحال ، ورمى بمبخرته فى وجوه التجار ، وسرعان ما انتفضت البلادة مولية، وتكالبت الأيدى والأذرع والسيقان .. وتطايرت الأثواب .. والأقمشة .. وفتحت الأجولة ، ودقت الصنج .. وارتفعت الأصوات تنادى ، ونضحت العين بالمشاعر ، فسالت الرغبة على الخدود والأشداق .. فالقادمة ليست امرأة عادية .. والقادمة التى تتثنى فى مشيتها تيها وعجبا ، تعرف طريقها إلى القلب .

لمحها رجل يعرض بضاعته فى عرض الطريق الرئيسى للسوق وهى تمرق إلى الداخل فارتجف وسقط من طوله . همهم تاجر يقف أمام أجولة الحبّهان والصندل والعود ..

- ما رأيت حسنا كهذا من قبل !

هزه رجل بشدة .

- أرأيت كيف تكون الخطوة ؟

تابع الأول همهمته لا مباليا ..

- ما أروع أن يتجسد الحسن فى هيئة امرأة .!

قاطعه الآخر محتدا ..

- أصبحت البلاد ملكا لها .

واقترب من الرجل المولـّه بالحسن وكز على أسنانه .

- هى الآن كالملكة ..

استدرك وأسرع قائلا :

- بل هى الملكة .

داوم الأول همهمته ، قبض بيده على الجبهان وقال :

- معذور من يقع فى هواها .

وتهادت حين خطت ، وكانت الخطوة تبدو فى عيون الناس ، تتابع فى مشى رقيق لا يدرك . شدت قامتها ، فبان صدرها جميل التكوين ، أزاحت خمارها فبدا وجهها كفلقة البدر . خيل إليهم حين رأوها أن القمر يضحك على جبينها . اهتز الرجل وبعثر الجبهان على رءوس الجمع ، واجتاحته النشوة فزام ودمدم ..

- إن لها صدرا ما رأيت مثله من قبل ..

أشاح صاحبه بوجهه وتابعها على حين لهث الأول وقال :

- إنه يغرينى بالتسلل .. والاقتحام

جذبه بشدة ، وقطع متابعته وقال :

- لا تجرفك العاطفة فتضيع .

أحاط صاحبه بولَـه .

- إنك حين تراها .. لا تقوى على سحب ناظريك من عليها ..

- وماذا بعد ؟

- وماذا بعد ؟ .. سيأخذك الشعور ، ويحتويك ، وسيفور داخلك بإحساس لم يخامرك من قبل .

.. وفى النهاية .

طوّح بيده فى ملل ..

- ليس فى مثل هذا الحسن نهاية .

- لكن الأمر بعيد .

توهجت عيناه ، وارتعشت شفتاه ،وخفق بذراعيه كعصفور بلله المطر..

- يكفيك الفوران الجياش ما دمت لا تستطيع أن تمتلك .

لاح له وجهها مبتسما. وصلها الإطراء ، فاحمر الوجه وأرخت الجفن .

- آه كم أشتهيك ..!

ضحك الآخر ساخرا وقال ..

- لا تجعل عواطفك ترتفع إلى مقعد السلطنة .

أرخى على جسده الجلباب .. وأرسل عينه وراءها .. وتمتم ..

- هى على الأقل لن تحرص على إبعاد نظرتى كلما شرّفت المكان .

٥

خلعت مركوبها ونزلت إلى شاطئ النهر ، شالت رداءها فلاح ساقها قطعة من النور ، تقاطر حولها الموج واصطفق ، واجهها فجاست بعينها عبر الأمواج ، قالت وضحكاتها ترن :

- لا يطفئ الظمأ غير النهر .

مسكت يده وهزتها .

- أنظر ، ألا يضحك لى ويدعونى ..؟

علتها مسحة من حياء .

- ماذا لو خلعت ملابسى وأتيته ؟

حقدق فيها وصمت .

- إن فى القاع - لو نزلت - عالما سحريا ..

«كان يأخذنى من يدى كل صباح لنعوم فى النهر . شهد النهر مولدى وصباى .. كنا نغوص حتى القاع .. وكنا نتعرى وتسترنا البراءة .. حدثنى أن خيطا من النور ينبعث منى ، وأنه شاهد الأسماك تحوم حولنا من بعيد .. قيدها النور .. أحبنى وافترقنا على حب .. وحين شاهدنى بين الغلمان والجوارى أصابه الكمد ، ولى ولم يخلف أثرا» ..

- قل لى ما بال الدنيا لا تعدل ..

ظل صامتا يرقبها .

- أحبنا فافتقرنا ، وكرهنا فاغتنينا .

دارت حبات المسبحة بين يديه وصمت .

- ألا تتكلم !

- لا يجرفك هوى النفس .

- حين نظر إلى القصر أحسست أن كرباجا يلسعنى ، وتأكدت أنه يتهمنى فى كل خبطة عين ..

دارت حول نفسها ، ثم جمدت .

- كان فى الحب غنى ، فأضحى الغنى فى الكراهية ..

توقع منها البوح ، شعر بداخلها يمور ، وبنبتة الصبا الطرية تئن تحت

وطأة الكره . جرفه شعور صادق بالخلاص ، أيقن أن النبتة فى الداخل فى حاجة إلى ريّ بعد ظمأ ، وتفتّح بعد يبس . تمنى أن تضحى عريشة وخميلة تلقى الظلال على الكل ، ولا يستأثر بها واحد بعينه ، فلا يستحق فناء الذات سواه . تحسس لسانه بالتجويف ، انفرجت شفتاه وانطبقت ، ثم انفرجت وقال بتمهل :

- تتزايد الكراهية حين تكون متبادلة .

شردت بعيدا ونفثت من الصدر آهة حزينة وقالت :

- ويموت الحب فى النهاية ..

مد يده ، ومسح شعرها . بدا الشعر فى عينه خميلة ، والعينان جدولين رقراقين .

- حتى الكراهية ..

- الحب يقضى على كل شيء ويعلو عليه ..

بدت مغتمة ومهمومة .

- حامت عيناه حولى وما حدثنى .. أحس أنه كرهنى ..

تعلقت عيناها به .

- نشأنا كنبْتين يعافران ، لكننى حين جئت القصر هرب منى قلبه .

مسّت صدره ، ولامست حبات المسبحة .

- اعتبرنى سقطت ، وتخلى عنى .

وسقطت من عينيها دمعة ، أحس صهدها ، دفئها .

- ظل يتابعنى فترة ، ثم ولى ، ولم أعد أراه .

رمقته بحنو وسألت .

- أيئس من صلاحى .

ظل صامتا يتابعها ، يدحرج عينه عليـها ، كلها ، يتصيد الحركة ، ويتابع الشعور .

- مضى وأخذ معه الكره لى .. ما أقسى أن تعرف أنك مكروه ..

ربت على كتفها وابتسـم .

- الكراهية التى يقهرها الحب ، تتحول إلى حب عظيم .

- ما أعظم الحب لو لم تسبقه الكراهية ..!

- .. وإن أتت بعده !

- إنه الموت ، فمن لا يحيا بدونه .

- كلنا نحيا به .

لاح على وجهها ألم مباغت ، فأسرع وعيناه تحوطانها .

- لا تقسرى حياتك على عاطفة واحدة ولا تخصى واحدا بعينه بها .

دفست يـدها فى جيب الخـرقة ، وأخرجت المسبحـة . وضعـتهـا حول عنقها فاغضى حياء ، قالت فى دلال لم تنجح فى كتمه ..

- وضّح لى فأنتم خير من يحب .

ضحك ، وأحكم خرقته .

- حياة تسيطر عليها عاطفة واحدة ، حياة تفتقد الحكمة .

- وهل فى الحب حكمة ؟

- إنه الحكمة بعينها ..

- أو حين يهـزمنا ويفضـحنا ، أو حين تشـرق العين بالدمع ، ويخـتلج الفؤاد ونكتـوى بنار الهوى وألم البعـاد ، أو حين ينفلت عيار العـقل ونبدو

كريشـة تذروها خفقـة ريح ، ورقة نسيم .. أو حـين نظل ندور ونهيم ، ولا يبدو أمامنا شط ، أو حين يحدث ذلك كله .. تكمن الحكمة ؟

- نعم لمن يعقل الحال .

- وهل حين نحب نعقل ؟

- ومتى انتفى الحب والحكمة ؟!

- لا تحيرني ..

أحاطها بذراعيه ، فخفق قلبها ، ونام فوق الصدر فؤاد مضطرب ..

- إنها البداية .. فلا تتعجلي .

٦

- أحلف أن الشيطان خواها ..

جاءه صوت الصبي من داخل المحل محتجا ..

- لا يقوى عليها .

نحى الرجل مبسم النارجيلة ، وكان الدخان قد عبأ فتحة المحل ، هش الصبي بقاياه واعتدل واقفا ، توقع الغضب فلزم الحذر ..

- عم تتحدث يا ولد ؟

قال بصوت واطئ ومقصود ، وكانت فتحتا عينيه ضيقتين ..

- وهل هناك غيرها ؟

نهض غـاضبا ، فـسقطت الـنارجيلة ، وسـقط الجمـر ، واستوى الحـبل مرتخيا على الأرض .

جذبه بقوة ، فارتج على الصبي فأسرع قائلا :

- إنما قصدت أن أقول .. إنها هي .. كما هي ..

أفلت قبضته عنه وضحك هادئا .

- ما تصورت أنك تعشق !

ابتسم الصبى غضبا وواصل حذره .

- ليس عشقا أن تقدر الجمال .

جلس التـاجر خلف منضـدته ، أعاد النارجـيلة ، ووضع الجمـر. أحكم الغطاء وتناول المبسم ، شد نفسا وآخر وثالثا ، رمى ببـصره على مـدخل السوق . كانت الصورة لا تزال عالقة ، الخطـوة الرقيقة ، وضحكة العينين ، وانضمامة الصدر . حدث نفسه بأنه لا يكفى أن يراها هنا ، أو يراها هناك ، حين يأتى بالهدايا ليرضى الحاشية وينال كرم الوالى ومنّته .

- لكنهم يا ولد يقولون أن الشيطان خواها ..

- أتصدق يا سيدى ؟

- فيها أصدق كل شيء

ضحك الصبى ساخرا متهكما ، علا صوته ومط ضحكته فاحتد التاجر.

- أتسخر منى يا .. ؟

انسحب الصبى يعيد ترتيب الأقمشة

- لم تجبنى

- أخشى أن تسبنى .

- قل فإنك تستحقه ..

- هم لا يعنون الشيطان يا سيدى

- من يعنون ؟

- الوالى ..

نحى التاجر المبسم وفز واقفا وكان العطر يسبقها ، والنور يتألق من عينيها ، خرج الصبى مسرعا وزاحمه النظر ، لكزه فى بطنه فتألم ، أدارت رأسها نحوه ، ففغر فمه ، وارتخت يداه . بدت الحركة كقطرة ندى بلت شوقه . حدث نفسه بأن الله حين خلق الجمال جعله مشاعا للكل فلماذا يحتكره واحد من الناس ؟ . لم يقو الصبى على المقاومة ، كان النور آسرا ، وفى النور الباهر تتطاير الفراشات ثم يطيح بها الضوء .. اعتلى بالة القماش، فرد الأثواب ، اختلطت الألوان ، نادى على بضاعته ، أدارت رأسها ، خطفت نظرة ، ومضت .. هوى بيده على الصبى .

- لم يبق إلا أنت ..

زام الصبى ، تدلتْ رأسه ، وارتعشت شفتاه .

- لنا فيها حق .

زجره فمضى يعيد ترتيب الأقمشة ، أحس بكمد يحتويه ، وبأن عينيه على وشك البكاء . واجه سيده ، أراد أن يقولها ، أن يزعق فى وجهه ، أن يكون طرده فى صدمة سيده . أراد أن يخرج هذا الشيء الضاغط على رأسه، والذى كثيرا ما ستره فى داخله وكتمه ، حاول .. فتح فمه ، شد رأسه وعنقه ، فرد ساقيه ، ورفع ذراعه ، وهم .. كاد أن يقول ، انفرجت الشفتان.. ثم .. ثم انطبقتا ثانية .. ولم يقو فتمتم فى حزن .

- أعرف أنكم تشترون كل شيء .. حتى الوالى نفسه .. لكنكم ، وخذوها من هذا الصبى المنهزم .. ستعجزون عن امتلاكها .. لا التجارة ولا المال ولا غيرهما بقادر على إغوائها ..

وانسكبت دمعة ساخنة ، أسرع فمسحها .

- لكن . متى تدرك هى ذلك ؟

انكفأ الصبى مقعيا ، على حين اندفع التاجر . وقف أمام الرجل الكبير هائجا .

- لم يقف أمامنا شىء .

وأشار بيده إليها ، فتعلقت العيون بها فازداد غضبا . رمقها الرجل الكبير والحسرة تأكل عينيه .

- فى هذه الحالة لا نستطيع

- كيف وهى لا تعدو أن تكون محظية ؟

- لقد اختارت

- لم يعد لها خيار

- بل هى اختارت ..

- لم نتعود هذا منك ..

- ليس المال كل شىء ..

- أأنت تقول ذلك ؟

- أين غاب عقلك ؟

- لم يعد فى عقل !

- أنسيت أننا نثرى على حسابها ..

- هذا لا يكفى

- وماذا يكفيك؟

- أن تكون لنا ..

- ليس المال كل شيء فتعقل

- نحن نشترى كل شيء .

وقفل راجعا ، محتجا وغاضبا .. صرخ فى حدة

- إنها تبيع نفسها

صك مسمعه مقطع حاد

- لا تلمزوا النفس

التفت فرآه ، الخرقة ، والمسبحة ، والوجه الأشهب العريض ، واللحية تتدلى على صدره ، أشاح بيده ودلف إلى الداخل مغتما .

٧

رموا بأبصارهم بعيدا فرأوه .. سبقته الرائحة ، تعودوا عليه فلم يعودوا يتأففون منه . تهتز المبخرة فى يده ، ويتصاعد الدخان من فتحات الغطاء عاليا ومنتشرا .. وكان الدخان يبعث العطر ، وينشر الرائحة .. كان قد أضجرهم ، وأقلقهم حين سقط عليهم فجأة ، أخذتهم الحيرة ، ونشب فيهم القلق . تلازمه المبخرة ، كما تلازمه الخرقة والأسمال .. تتهيأ المحلات للبيع، ويقف الصبية للخدمة ، ويتربع التجار على كراسيهم ، تتلوى أمامهم حبال النارجيلة ، وتلفظ المحال مابداخلها ، وتتعرى الأثواب للعيون ..

ويمرق كالسهم داخل المحل ، يدور بمبخرته فى المكان .، على الأرفف والأجولة والبالات .. يحرص أن يعمهم جميعا بدخانه .. ويحرص أكثر أن يطوف حول رءوس الكبار . كان يتلذذ حين ينفخ المبخرة ، فينتشر الدخان ويتوزع ، وحين يتأكد أنه صنع غيمة من دخان تختزن القطر يترك المكان ويمضى ويظل يلف ، ويداوم الغيم انعقاده، لا يمد يدا، ولا يولى أحدا نظرة ،

لكنه ما كان يمتنع عما تجود به الأيدى .. على غير العادة ظل صامتا لا يتكلم، وإن ناوشه الغلمان ، وصبية التجار . تركوه فالحالة لا وقت لها . وقف أمام الدكان الفخم ، وتسمرت قدماه .. كاد الجمر فى المبخرة ينطفئ ، وهو يحدق فى التاجر الكبير .. ظل واقفا يحدق فتوجس التاجر خيفة وأشار إلى صبيّه ، ذهب إليه الصبى وسأله.

- ألا تدخل !

ظل صامتا لا يتكلم .. رغم همهمات تصدر منه متقطعة لا تبين .

- أمعك بخور ؟

ولم يخدش الصبى صمته ولم يخرجه من سكينته

اندهش التاجر فنهض وتقدم إليه .

- كف عن التحديق

وانطفأ جمر المبخرة ، ولازال يحدق .

- لا تجعلنى هُزأة

علق مبخرته فى ذراعه وزاد من صلب عينيه

- لا تجبرنى على إيذائك

لم ينطبق الجفنان ، ولم ترمش له عين .

- لا ينطلى على هوسكم

اهتز فكه وزم شفتيه .

- ابعد فإنى لا أطيقك

رمى المبخرة ، تناثرت وتطاير الرماد ، أصاب الرماد وجه التاجر فهاج ، حاول أن يزحزحه فلم يستطع .. اتجه إليه بغلّ وقال :

- ماذا تريد ؟.. قل ماذا تريد فلست فارغا مثلكم ؟

اهتز فكه ونطق ، خرج الصوت وئيدا وخفيفا

- إنى كما ترى خفيف ، ولا أملك سوى أسمالى البالية ومبخرتى ، وهاهى ضاعت منى ..

أشار التاجر إلى صبيه وزعق

- اعطه ثوبا وخلصنى منه

اعترض فى قوة .

- ليس الثوب ما أبغى .

- ماذا تبغى إذن .. ؟

استدار إلى صبيه والغضب يسبق نطقه

- اعطه المال ليشترى المبخرة ..

اعترض فى حدة

- وليس المال قصدى .

- زفر التاجر وشخط .

- إذن ماذا تقصد ؟

تفرس فى وجهه فبان له ذعر واضح على الوجه .

- إنى كما ترى خفيف ، لا يقيدنى شيء ..

ضحك ساخرا وقال :

- ومن قال إنك ثقيل ؟

- أريد أن أقول إنك مقيد وعليك أن تتدبر الأمر

- أى أمر ؟

- الرحيل !

- الرحيل إلى أين .. ؟

أشار إلى السماء وتملى وجهه ، ارتعد الرجل لذكر الرحيل .. كأنما جاءته الإشارة فجأة ، سحب يده ، حاول إدخاله الدكان فأبى.. لاطفه وقال :

- أيشغلك الرحيل ؟

- لا تسلنى واشغل نفسك بالتدبير

ضحك غضبا وقال :

- قل لى كيف ؟

- اعط ما لله لله .

جاراه فى تلطف ، لم يخف ذعره .

- إننا نجزل العطاء والله أعلم ..

- الأحمال ثقيلة

عاود التلطف والتبسم .

- ما نعطى يخففها إن شاء الله ..

- فكر بعين البصيرة فى الأحوال فأنت .. رئيسهم ..

ثم أشار إليهم .. تفرس فيهم واحدا واحدا .

- قل لهم أن يفتحوا الأبواب ، ويخرجوا الأموال .. ويتدبروا الأحوال فقد يأتى اليوم الذى نحتاجكم فيه ، ولا نجدكم .

ولملم أسماله وخرقته ومضى ، وظل التاجر الكبير واقفا ، جامدا ومغتما. قالوا بعدها إنه لم يعد إلى المكان ومعه المبخرة ، كان يعود بدونها..

لكنه كان إذا ما نزل السوق استقبلته الرائحة .. فقد علق التجار المباخر فى محالهم وأجزلوا لها البخور .

٨

صادته عيناى وهو يحدق فى التاجر ، غاضبا ومنفجرا . كان الجمر يخرج من عينيه ، وكان الذعر ينضح على ملامح التاجر .. يحيرنى ما يحدث ، كلما خطوت رأيته، أكان يتتبعنى ؟ .. فلماذا حين أسير فى المرج الأخضر ، لا أرى سوى الرءوس الواطئة والظهور المحنية ؟ ولماذا أرى فى العين ، وفى النظرة الارتياب ؟ وأنا من أعطيتهم ، أفتح أبوابى لهم .. وأغدق العطاء . لماذا خبت فى عيونهم اللهفة وأنا أداوى جراحهم ، وأمنحهم فؤوس الأرض ، وكساء الشتاء ، على حين تفور اللهفة من أشداق التجار ؟

لماذا يحرص هو - دونهم جميعا - على تتبعى : تظل عيناه راقدتين فوقى لا تنهضان . أضحكنى منظره أحيانا ، لكن هذه اللحظة سحب منى وجدانا كان مكتوما . تشدنى أسماله وخرقته ، وعيناه، حتى السوق لم ينج من تتبعه لى .

ظننت به السوء فمن لها حياة مثلى لا تحسن الظن بالناس .. وإن بسطت لهم الكف والقلب . يخطئون حين يظنون أننى أجهل ما تدمدم به نفوسهم، فأمامى تتكشف الأقنعة ويتعرى الداخل ، يمور دوما ولا يستقيم .. هذا الذى صرخ وعابنى فى السوق ، يجيء القصر راكعا ، يقدم المال والجوارى ويحسن السماع . يحسبوننى بلهاء ، ويسحبون من جمالى لمسة الذكاء .

لكننى كنت ألمحه بأسماله البالية ، وبخوره الصاعدة ، انتفض .. أكان منظره يثيرنى أم أنها المسبحة تتدلى من رقبته ، وتهتز كلما اهتزت بطنه .. رغم أنه يبدو وللوهلة الأولى نحيفا مقددا . كثيرا ما كتمت ضحكة راودتنى كلما وقعت عيناى على جيوب خرقته ، فتحات كثيرة ، دروب ضيقة تتفرع عن طريق جهم الشكل متين الامتداد ، وها هو الآن يدهشنى بشيء فوق الخيال . وكم غالبت الخيال فغلبنى ، فكلما عشت واقعى عشت خيالى .. وكلما نظرت إلى وجوه الناس العاديين تطفر بالكآبة والمعاناة كلما كان الخيال ملاذا ذاخرا بالطهر وجمال الروح .. ولكنه الآن كاد يقع أمامى وعلى مقربة منى ، تلاشى الواقع فى لحظة وبدا الخيال والحلم عينا تبعث الدفء وبدا تربت بالحنان .

كم كنت أرتجف حين أراه ، والرجفة حين تأتى منه تشبه الخوف من المجهول ، وتظل تضغط على النفس .. بدا لى أنه تتبعنى حتى فى لهوى ، وتمدد على أوتار مزهرى ، ثم جثم كالكابوس .. والآن أراه .. أنظر إليه وأتملاه ، تحدونى الرغبة فى انتشاء . ودفعنى إحساس مبهم فى الداخل أن أمسك بهذا الدفق المبثوث منه حتى يهدأ جسدى ويستكين القلب ، وأستسلم لخدر ترتخى له الأعضاء

- كأن أثقال الدنيا هبطت عليك دفعة واحدة ..

انتفضتُ مذعورة ، خيّل إلى أنه لمس خدرى وأحس بشعورى فجاهدت نفسى وقلت :

- بنفسى غم لا أقوى عليه .

تأملنى ، غاصت عينه فيّ ، بدا لى جوفى عاريا ، بأحشائه وتكوينه ،

أحسست بخوف طارئ فلملمت ردائى حولى ، خشيت أن يتعرف فيحزن. تابع حركتى وابتسم ، فخجلت . بان على وجهى الحياء .. مد يده ، بسط كفه ، فسرى الدفء الصاهد يتسلل حتى العمق ، كدت أحس به ينساب فى مجرى الدم .. ثمة دغدغة ترعشنى ، ففرحت وكتمت الرغبة فى الانتشاء .

- لا تكتمى شيئا ..

وذهلت ، أخرجنى صوته من دوامة تجتاحنى ، ورغبة بدأت فى التسلل . أسرعت خجلى ، على ندرة ما أخجل .

- بى فرح يشبه النشوة

- لا تجعليه يفلت منك

- أخشى عليّ منه

- المكابدة طريق المتعة

فغرت فمى دهشة

- المتعة يا سيدى

- نعم المتعة ، ولست سيدا لك ..

٩

يخرج اسمك من بين الشفاه بلون الورد ، وشفتك كحبة الكريز ، حمراء دامية الحمرة . ووقع النداء باسمك ممزوج بحرارة اللهفة ، وفجأة التوقع .. والصوت مسحوب منغم ، الجا .. ريـ ..ة . وحين يصل اللسان إلى الحرف الأخير الساكن تهدأ النفس ويلتاع القلب ، فالخضرة حين تكسو

الاسماء تصنع خميلة وينمو الثمر . وثمرك طازج مشتهى لمن يعرفه ويقف على كنهه . لكن العيون المتربصة بك لا تزال نفوسها سادرة ، لا تعلم أن هناك التقاء ضوئيا ، وأنك إحدى النقط المبهرة غشيها الحسن فغاب عنها المعنى .

يريقون النظرة ، ولا يرون سوى الجسد المشوق ، والصدر المتقن الصنع، والهامة المشرئبة ، والحاجبين العريضين والامتداد المنحوت في الساقين ورقة الخطو .. وينسون طاقة النور في الجبهة ، ودفق النور في العين، والانبهار في القلب .. معذور من لا يرى إلا بعينه ، غافل من لا يدرك الكنه ويكتنه الخبيء .

قال الأحباب عند الأعتاب : وصلتَ

وصاح رفيق لى : فنيت فغبتَ .

فطأطأتُ رأسى ، فظنوا أنها اللحظة ، تذاكروا فتقاطرت خمر المحبة على أشداقهم وأسبلوا الجفون . ولما عرفوا أننى مشغول بها بكوا . تحلقوا بى ، وناوشتنى العيون .

- ونحن الذين ظنناه بخمر المحبة سكر .

وتخضلت لحيتى بماء العين ولزمتُ الصمت، طلبوا منى إيضاحا فقلت:

- أحبائى ، طاف بى النور الأرضَ والسماء ، وشربت من بحر الأفلاك ونهر الحياة ، ولا زال يا أحبائى .. لا زال يمرح فىّ العطش .

طأطأ صفىّ من الأصفياء رأسه ثم قال :

- أفيها الرى ؟

وجدتنى أقول دفعة واحدة :

- أحبـائى .. كلما ظننتم أنكم توغـلتم ووصلتم كلما أدركـتم أن البدء نقطة ذات مسرى طويل .

واقـترب منى شـيخى ، وازداد لصـوقا بـى ، كانت عـيناه بحيـرتين من الصفاء .

- قلبك يا أنتَ واحة منداة وسط قحل يابس ، فانشر نداك حيث يجب، واسق القلوب بماء المحبة .

ارتخت مسبحته ذاته الألف حبة على وركه الأيمن وتابع يقول :

- يا أنتَ .. اقطع الحبل قبل أنْ تضيع فليس ما يشغلك غير قيد جديد .

وضع يده على كتفى وضغط فى حنان .

- كان واجـبك أن تُسقط الأغلال عـمن يحاولون .. لا أن تضـيف غلا جديدا .

قلت وقلبى يمور :

- ادع لى .

قال وبسمة تعلو وجهه ..

- آنسـك الله بقربه .

وظل قلبى يترنح فى الحفل .. والحفل حفل الأربعاء .. والليلة جفا المنام وحـلا الذكر . فـالدم لا يزال ينسكب ، والآهة حين علت ارتجّ لهـا الكون وهاج الموج . وظل اللسان مـتدليا فوق الـصدر يطلب الرى ، وطاف القلب فى بحـار النور والشهـادة . وبقى العطش . ونحـن فى مقـام اللائذين بك ، نستجير برضـاك .. يا صاحب القلب وحاضنه احجبنى عمن سواك ، وأعنى على من أدركتهم الغفلة .

١٠

مـزهرى حصـاد ليل الأنس ، وسـرج الجواد ، وجـوادى يرمح فى غيـمة عطر .. ويقفز هامات المبـخرة ، ويتلوى الدخـان يحمل عـبق الصندل والعـود ، فيـترنح القلب وتهيم الأوتار ، فتتفجر الألحـان غصنا طربا يسقى بماء العطر ، يسحبنى من يدى فأراقصه خفيفة رفافة كالفراشة .

- أنت زهرة بللها القطر .

وأقول فى نشوى أجاهد أن أحبسها ..

- مولاى ..

ظل يحـوم حولى حـاجلا كـعصـفور ، وتسـترخى الورقـة لقطر الندى واهمس ..

- أنت الندى .

ضحك ، فارتعش الدخان

- أسرعى به

جـئت به من الخوان كـأسـا ممزوجا بماء الورد ، احـتـساه دفـعة واحـدة وتصاعـد النغم ، تمايلت جواريه ، ضربن بـالدفوف والمزاهر ، بدا الطبّال لا يتحكم فى أصـابعه ، ولا يطاوعه جـسده ، لكننى رقـصت .. ونفضت عن نفسـى الرداء ، ولم تبق سوى الغـلالة ، وارتطمتْ الصاجـات النحاسـية ، الصوت المصكوك منغّم ، والمبخرة مشتعلة ، والبخور يتطاير ، ورائحة العود تذكى النفوس .

ودار فى المكان .. وظل يدور ، طار وحط واحتوانى . فـصرخت الجوقة

حوله وكثيرا ما تصرخ :

- مولاى الليلة هائل .

غمزتُ له بعيني فأخذني ، أدار ظهره لجوقته فحلا في عيني ، غنى بصوت مشروخ .. ويداه تجبراني على اللصوق به ..

وغزال زان بالقامة ردفا بربريا ..

ضرب العوّاد على وتره وقال :

- ما أحلى المعنى يا مولاى

أمالت عازفة رأسها وأصخت لرنات مزهرها وقالت :

- كأنما هي المقصودة

ابتسم الطبّال وطاوعه جسده

- لا يعلو ردف على الردف البربرى .

ضحك واستدار لهم فتوقفوا .

- ما أحلاه لولا أنه لشاعر مخنث .

كتمت ضحكتى . بان لى فى اللحظة أن هذا الجو ، هو مبعث هذا الشعر وأن صحبة قوية تربط بين الاثنين ، ولا أدرى لم طاف بذهنى فجأة منظر الظهور المحنية فى المروج الخضراء . تيقنت أن الترف يستوى مع الفاقة فى إفراز التخنث .

لوى ذراعى فانحنيت ، حدق فى صدرى فأغضيت ، وانتفخت العروق وأحسست بمسرى الدم يكاد ينفجر ، ارتددت إلى الوراء مبتعدة ، خشيت النظرة وارتعبت منها . الهوس يطفر منها ، وبدت الحفلة متعة زفاف ، وكأنما كنت مسوقة إلى قدر لا يتجاوز المتعة .

جفلت حين أمسك بالغلالة ، كان جسدى واضحا ومجسّما . وكانت العازفات يتأوهن .. وكغيمة أفرزت ما بها أسقط الغلالة .. وضعها على وجهه ، يتشممها بنهم جسور .. راقبتُه فى حس مهتاج ، تابعتُ لمسات أصابعه وحركات يده .. حزم جسده بالغلالة ورقص . تلوى وطرح ذراعيه فى الهواء . أكثر من الدوران والتثنى ، تنفس فى عسر ، ونز منه عرق غزير، وتقدم نحوى

- يا إلهى كم أنت مليحة !

صاح ، واحتضن دخان المبخرة .

- ما أعظم اليد التى أبدعتك !

طرح يديه بالكلّية علىّ واقتادنى .

ظهرت الطنافس حمراء بلون الورد . والضوء ينسكب فى اهتزاز مرتعش والنغم الممزوج بعطر الصندل يزاحمنا ، والرغبة واتتنى . تأرجحت الأحشاء ثم تقلصت وأجهدنى ، والعطش لا يزال . العطش يتمدد داخلى ويتمرد . حدثونى عنه جوادا رامحا صلبا .. لكنه أطبق العين فى انكسار . لملمت نفسى وانزويت . أسرعت الجوارى ، أحطنه ولملمن أشلاءه . ثم واجهْننى . وكانت الصفعة دامية ، طردهن فى عنف واستدار .

- أتعصيننى !

لذت بالصبر ، وتحسست الصفعة .

- ما أنا إلا جاريتك .

سمع صوتا نديا يترنم .

«فسقيناه على الورد شرابا ذهبيا»

أخذته عبسة شديدة من الهم وقال :

- إذن كيف لم يحدث ؟

تناولت الغلالة وقبل أن أطرحها على جسدى سارع فى حدة .

- ابقى كما أنت .

- لا يليق في حضرتك .

- لا يليق سواه .

وطلب البخور فواتاه وسألني :

- أأنت ممسوسة ؟

- بان له اندهاشي فواصل ..

- إذن بم تفسرين ذلك ؟

جاهدت حين قلت وكان داخلي يهترئ .

- ربما لم أحلُ في عين مولاي .

- أنت تعرفين أنك جميلة وبك طاقة هائلة على الإبهار .. لكن ما حيرنى هو اللسعة التي أحسست بها حين .. اللصوق بك ..

ضحكتُ وقلت :

- تقول اللسعة يا مولاى .

- نعم كأنما كان بداخلك جذوة متقدة .. جذوة حقيقية ، أفقدتنى توازنى ..

اقتربت منه وهمست .

- كنت عطشى يا مولاى .. كنت عطشى من زمن طويل .

- أحين تعطشين تلسعين ؟

ضحكتُ وكان للضحكة رنة الوتر المشدود .. وخفقة الشهقة الملتاعة .

- حسبتكَ الري والندى ..

نظر إلى وجهى ، لمس مكان الصفعة وقال بأسى .

- لقد كنت فظا معك .

ألبسنى الغلالة ، فعانقته واستكان كطفل وديع .. وظلت الصفعة على وجهى ترسل ألما فى القلب .

١١

- يا ..

وغطتها غيمة من حياء .

- معك يا جارية !

حمل صوتها نبرة الأنوثة وتكسرها .

- صوتى يصل إليك !

- رخيما .. وحلوا .

داودها الحياء ، فأطبقت جفنيها ، وأسبلت الرموش ، كاد الدم ينفر من الوجه ويخرج من العروق . وكان فى مسراه - للحظة - يحدث التميل والرعشة .

- صوتى يعجبك ؟

- إنه صوت لقلاق الفجر يؤذن بالنور .

- كلامكم يا أصحاب الحالات حلو ..

كوّم المسبحة ، وضعها فى جيبه ، مسح وجهه بكفه العريضة ، وربت على كتفها ..

- يا جارية .. الأبدان دنيوية ، لكن القلوب سماوية .

أدركتْ ما يرمي ، فانفرجت شفتاها في لهفة .

- لو ألبس ثيابكم ..

جذبته من كمه ، فتمزق . حاولت أن تلملم المقطوع فعجزت .

- ألا ترتدي ثوبا آخر ..؟

هز رأسه ، واعترض ، بدا لها الاحتجاج في عينيه فأسرعت .

- إنه لا يكاد يستقيم .

- لكنه يكفي وزيادة ..

- أتريدني أن ألبس هذه الأسمال ..

- لسنا معتصمين بها .. حتى نلبسها .

- ولم تحرصون عليها ؟

- إنما هو التخفف .. فلا تشغلي بالك .

دارت حوله ، فردت ذراعيها ، وملأت صدرها بعبق الرائحة المنشورة ..

- قلبي يا ..

- معك ، ولا تهتمي بالأسماء .

- قلبي يا .. أنت .. يحب .

زجر القلب وواصل .

- كلنا يذوق الحب ، وينا له بطريقته .

(النيل من تحتنا ينصت ، سكن الموج وأرهف الآذان والطريق محفوف بالآلام . والوقوف معها اختبار .. وهي تحتاج إليّ .. تمسك القلب وتدعكه، ترمي فيه البذرة، فيعشوشب الحب ، ويصنع الخميلة . والقلب حين

تصله الومضة يزيح ركام الفساد الذى اعتلى الجسد . من لى بالشيخ فيحكم ؟ . من يدرك معى أن ومضة النور الخبيئة ستنداح هالة من النور يعشى العين ؟.

آه لو عرفوا ، - وقد لحظوا - لحكموا على ، وعلقونى على الخشبة أمام السارح والبارح .. وربما فصلوا رقبتى .. وأسملوا العين .. أكان يجب أن أمزج الحبين ؟ أآرانى قادرا على اجتياز الاختبار . الاختبار بلاء ، وما أكثر البلاء فى أيامنا ..الحب ليس مشروطا ، فالمحبة الكلية غامرة تفيض على الخلق والوجود كله ، وإذا لم يكن الحب لهم فلمن يكون ؟ .. والحب مبثوث فى الكون باقتدار .. فمن يعثر على البذرة ، لتصبح خميلة ، أترانى عثرت عليها ؟) .

- حدثنى عن الحب .

- نحن نعيشه .

- صفه .

- ما وصف بالكلمة ينعدم .

- ألا تزدنى ؟

(كيف تخوض فى الأسرار . والمحبة الكلية سر الأسرار يجوز الخوض فيها .. فكيف لى بعبارات تشرح القدس والتقديس والسمو والفناء) .

- ألا تحدثنى ؟

تاه واحتار ، جاس بيده فى لحيته ، ثم التقط حبة نبق .. لمح الموج فى انحناءته ، مفتوح العين ، مرهف السمع ، فتمنى أن ينقل الحب إلى الشقوق

كما ينقل الماء .

- إذا كشفت عن قلب المحب وجدت قلبا ليّنا منكسرا ، قد ملأته المحبة ، وغفل عن غيرها ..

- كيف إذا أحببت غفلت ؟

- إن الحب على الحقيقة ينسى كل شيء ..

- لكنه لا يعوض لك شيء ..

- هذا كلام التجار .. فليس فى الحب خسارة .

أحاطها بذراعيه ، فمشى الموج وئيدا ، وتحركت الغصون موشوشة .. وتماست تحت الأقدام حشائش المكان .. اضطربت ، واهتزت أعطافها . خرج النفس منها بصوت الآه .. فزمّها وقال :

- لا تخشى ، فالحب هو الصفقة الرابحة ..

- أترانى أستطيع ؟

نظر إلى أعلى ، فلمح فى السماء نتفا بيضاء تزْجيها ريح رخية .. وسرعان ما انضمت ، فتماسكت ، صنعت فى عينه غيمة ، حدث نفسه بأنها تحمل فى جوفها ، القطر والرى والندى . فمتى تعصر الغيمة قلبها ، وتعطى عطاءها ؟

- من علامة المحب على الحقيقة .. أنه لا يذل لغير الله ..

- أو أستطيع ..؟

- يا جارية .. ليس فى الوجود محال ..

خطا بها إلى النيل ، فاصطفق الموج راقصا ..

- حين تنبثق من المحبة قوة الود ، وود الفعل .. لحظتها لا يحب المحب،

جبارا ، ولا متكبرا ، ولا ظالما .

- أتيت بالمطلوب .. وساعدني .

(مزهري خفقُ قلبٍ نبض بالحب ، على ضفاف النهر ، والنهر يصدر موجه مرجّعا . والقمر يبوح بالعشق والأشياء حولي تتلاصق وترتجف ، وأميري لا يزال يركب الجواد ويمخر الدخان . والليلة ربيع الملهمين .. والقصر ، موئل الشعراء والمداحين ، وأنا أتعرى وأرقص . والوزير يطلب ليلة .. يتشفى حين اتابى .. فإلامَ أظل تعتصرني الأيدي ، ويأتي الجفاف .. أموت من الجفاف .. وأخشى أن يكف العطاء) .. دفست مركوبها بقدميها، احتضنت مزهرها وتهيأت .

- إلى أين ؟

- إلى القصر ..

وسافرت عينه وراءها . وجلس على الشاطئ يحدق في النهر .

١٢

التلال والجبال وكهوف الخلاء .. والخلوة مقصد العبّاد .. وملاذ الزهّاد من سطوة الزمان . والطريق إليه في خلوته وعر وملتو ..

جاءه ملتاعا فلعل الشيخ الزاهد يعطيه الأمان ويحمل البشارة . وقف على قمة الجبل . خيل إليه أن السماء قدْر شبر منه . وتناهى له الأسفل على بعد السفح وامتداده نقطة غير محددة ، تختلط فيها الملامح وتنبهم .. بدت المدينة في عينه صغيرة منمنمة ، بريئة ، شربت من ماء النيل وتعطرت . هز رأسه وفرد ذراعيه بطولهما .. وقبضهما

على فراغ . بدأ يراجع نفسه ولا يصدق أن يحمل هذا الجسد المنمنم كل هذا الفساد ؟ .

رمى بصره إليها وظل ساهما .. تنبه على صوت شيخه فأدرك أنه يقف على قمة المقطم . وأنه فى العلو شغلته السماء .

لاصقه شيخه وقال :

- كلما رأيتك تخرج من الخلوة ، وتنظر إلى المدينة ترتج .. ألا زالت شغلك .

- أحملها بين جوانحى .

- لقد هربتَ منها .

- لأعود إليها .

نطق الشيخ فى تحسّر .

- أربعون ليلة ولم يفلح الذكر فى النسيان ..

- حملتها معى لتشهد ذكرى .

ألقى الشيخ عليه بصره فى يأس وقال :

- وأنا الذى حسبتك نجوت .

- فيم النجاة يا شيخى ؟

- فى التقوى والمراقبة .

- زدنى أثابك الله .

- فرّ من الخلق ولا تأنس إليهم ..

- كلما فررت منهم ، ازددت قربا إليهم .

وتبسم الشيخ غصبا، نضح القلق من بسمته لكنه مسح رأسه بيده وقال:

- سقى الله الطائعين كأس المحبة. فهم فى شربهم عطشى وفى عطشهم رى يدوم .. فاجتهد فى فكاك نفسك .

(الخلاء .. البراح .. والنفس القلقة ، والصدر المحزون .. هنا ينفسح المحدود ويمتد ، وينطوى المكان . وتظن أنك محور الكون ، وقلب الوجود. يخيل إليك أنك وصلت . وانت لا زلت مقيدا . إنك تعرفت ، ولا زلت جاهلا .. إنك هربت ولا زلت مشدودا .. دائر فى فلكى الحركة والسكون.. وتأسرك من بعيد تلك النقطة المعتمة . النقطة التى خلت من التكوين والتحديد . النقطة البيضاء والمعتمة ، التى يمرح فيها الفساد .. ومن يقوى على فساد هذا الزمان ؟ وكلنا يعلم .. ليس منا من يجهل . لكن من يتقدم ويفعل، أتيتُ إلى الخلوة هربا ، تصورت الروح تنسكب فى أعطافك ، وأن النور يضيء داخلك . وبرغمك تصطادك ، وتكبر فى عينك ، وتزداد إعتاما . خلوتَ فما وعيتَ وما أدركتَ .. أكان فى المشاهدة الغياب، أم فى الغياب الحضور..؟.. وأنت .. وهى .. أتستطيع أن تزيل عنها ما علاها وأحزنها .. أتستطيع أيها الهارب إلى الخلاء .. أتستطيع ؟) .

أحكم عباءته ، وشد قامته ، سلم على الشيخ ومضى . لمح وهو ينزل فى حذر ، امرأة بالية الثوب ، شعثاء الشعر ، لا يكاد يسترها شيء ، تبكى فى صوت محزون . وكان الصوت مخروقا يبعث على الأسى . تقدم منها وسألها :

- من أنت .. أثابك الله ؟

نظرت إليه فى دهشة مرتعبة وقالت :

- ما كنت أتيت لو عرفت ..

- أليس لك بيت أو أهل ؟

فردت ذراعيها ، كأنما تحوط بالكون كله .

- ضع - يا أنت - على جوارحك ميزان القسط ..

- يبدو أنك فقدت الأهل والسكن .

- يا أنت .. الواحد منا مسكنه حيث يدرك . ولباسه ما يستره ، وزهده فى قوته .. فانظر إلى شوقك وامتطيه .. وإلى صبرك فتوسده .

- أأستطيع عونا ؟

- كيف وأنت العاجز .

أذهلته المرأة فحزن وتألم ، أحس بنفسه مكشوفا ، فتقدم منها وقال :

- فيم تنصحيننى ؟

تفرست فى وجهه ، وتكومت .. حدثته ، وهى ترنو إلى البعيد ..

- فلتسق الآلام شقوقَ الأبدان ، حتى ينصهر الحس ويلتاع الفؤاد ..

أدارت رأسها نحوه فبان له الذهول مرسوما .

- يا أنت .. شمر عن ساعدك ، ودع ما يتعلق به المخادعون .. يا أنت .. لا يعيد للمسكن بهاءه إلا من أقامه ..

أحنت رأسها ، فلم يبد منها سوى كومة من الشعر ..

ولفهما الصمت وظل ملاصقا لها .. خدش الصمت وقال :

- ألا تزيديننى ؟

رفعت رأسها وقالت :

- انزل .. فلعلك فطنت .

ولاح له الكون واسعا وعريضا ، وبدا له المقطم ذرة خافتة الملمس ضائعة الملمح ، وتبدى الأسفل - فى نقطته المعتمة - جرما وامتدادا ، بيوتا وشوارع .. فحدث نفسه .. بأن الآلام ماء الأبدان .

١٣

رأى الحزن يمشى فى الشوارع ويطفو على الوجوه . رأى الناس مهمومين ومحزونين . رأى النظرات تائهة ، والعيون زائغة والأرجل تتخبط . رأى الظهور تنحنى والشفاه تحدث نفسها .. أصابه الهول فأرخى قلبه وبكى . البكاء طهارة للروح . ودمعة المحب ضوء الوصول . وفى العذاب تتخمر النفس وتنضج الحقيقة . والطريق إليها طويل والطريق مفروش بالآلام .. والآلام لا تطاق. كان بيتها البراح كله ، يشقه النيل ، ويغمره الطمى ، وتحرسه العين اليقظى ، والقلب الكبير .. فما بالها الآن مسجونة بين أروقة القصر ؟ .. وأضحت الثمرة وليد عناء .. وكانت بيدرا يمتلئ بالحصاد . لكأنما هى الآن تنتظر . تلملم أشلاءها وتنتظر .

فتحوا له الأبواب .. والقصر فخم وعظيم . تنحّى الحراس وأدخلوه ، واجه الرجل القوى .

- افتح القلب ، ثم احكم ..

ضحك الرجل فى بلاط السلطنة ، فتماست أعمدة الرخام . بانت نواجذه قاطعة . حدق فيه ، ثم بتر ضحكته وقال :

- أنت !

- جاءت تشكو صاحبكم فقهرتها .

- من ؟

- الجارية ..

ارتج ونهض ، انطبق جفناه على صورتها .. لا زال هدبها الطويل يتماوج فى قلبه ، ويبقى فيه الألم والوجع .. أرادها ونفرت ، وخلفت فى النفس حزنا .

- لقد كبا بها .

- من ؟

- الوالى .. أم أنك نسيت ؟

- ما خلا زمان من كبوة ؟

- ولكنك أيضا لم ترحمها .

- تمهل فالجزع يغلق الأمل ..

- الأمل !

أحكم عباءته ، وتولته هزة قوية فصرخ .

- لقد أحكمتم قبضتكم عليها .

غضب الرجل الكبير ، واحتد فى وجهه .

- لا تنس أنك هنا فى حماى .. ولولا ..

قاطعه فى عنف .

- ألم السجن أحب إلى من ألم النفس .

- السجن !

وتمايل الرجل ضاحكا ، أخرج الكأس وشرب ، أشعل

سيجارته وتمهل قائلا ..

- مالك تحمّل الموقف غير ما فيه.. كما أنني لست الوالى فتعقل وتأنّ ..

- ألم تسقط أمامكم ؟

- من ؟

- الجارية

- هكذا أنتم يا أصحاب الحال دوما تهومون .

- أمن يذكر الحقيقة يهوّم ؟

- يا رجل .. إنها فى القصر كأميرة .

حدق فيه وقال :

- لقد استدررتم بها العطف .

- أعلم أننى قوى .. فلا تستفزنى ..

دار فى المكان .. ذاهلا وهائما .

- كان عودها قد صلب ، ووضحت ملامحها ، وتحدد فيها التكوين ثم حلت فى العين .. وحين تزنى العين يضل الفؤاد ..

خبط الكأس ، وأطفأ السيجارة .

- ألا تنعم فى القصر كأميرة ..

- كيف لعبْد أن ينعم بالحياة ؟

ضحك فى سخرية وواصل كلامه .

- أماتت .. لم أعرف ..

- وهل بعد حالها موت .. إنكم تعصرونها ليل نهار .

- إنه قدر من يعطى .

- لقد سحبتم عطاءها ..

- عطاؤها لا ينفد إنى أعرفها ..

وهامت عيناه ، وارتفق يديه على المكتب . وطافت فى خياله ليالى الأنس .. وظل عالقا فى ذهنه هذا الجسد المتلوى الراقص .. الذى يختصه الوالى دون سواه .

وابتسم فى غل وقال :

- إنه لا يزال ينعم بها فى القصر .

- إنه يذيقها القهر .

- هى الأميرة المتوجة .

- وهو الظالم .

اقترب منه وصاح - ألا تشاركه الظلم !

لزم الرجل الصمت ، أشعل سيجارته وحدق فيه .

- من لا يرفع الظلم فهو ظالم .

ظل على صمته حين رآه مهتاجا ومحتدا .

- ليس الإغضاء طريقا للوصول .

- لست فى مجال العظة .

- ومن يكبر عليها ؟

اقترب حتى كاد يلاصقه .

- من شكا إليّ ظلم ظالم ولم أنصفه فأنا الظالم . ألا زلت تذكر ..

- يا أنت لا تزدنى إيلاما ..

- لقد زنت بها كل العيون ..

- رفقا فالزمان لم ينته بعد .

- من ينشد أحلام الموتى تأت أيامه سرابا ..

استدار وقبل أن يخرج لوح بقبضته ..

- كفاها ما بها .. ولا تكونوا أول من يجهز عليها ..

عاود الرجل الجلوس على مقعده، أحس أن نبشا مدمّما يلعب بالقلب .

١٤

كان خطوها بطيئا وهى تسير فى ردهة القصر . والقصر مغمور فى الأضواء والأنوار .

عكست المصابيح نفسها على المرايا وأعمدة الرخام ، ولم يعد للجسد المتحرك ظل .

أسرع إليها غلام القصر يلطم خده .

- سيدى ينتظرك .. يا .. يا مولاتى .

كتمت ضحكة ساخرة وقالت ..

- أصبحت مولاتك ؟ ..

طأطأ رأسه فى حياء وقال :

- لا يليق بك سواه ..

ألقت بنظرة على المرايا .. المرايا تفتقد الصورة المعكوسة ، وصورتها تنعكس على العيون بألف لون ولون . وتشى المرايا بتفاصيل جسمها ..

- مع من ؟

- بمفرده .

- قلْ له جاريتك الليلة متعبة ..

ومضت إلى جناحها .. الفراش وثير ولين . رمت بنفسها فغاص جسدها كله فى ريش النعام ، وانبعثت أضواء الأحلام الوردية من حبات الثريا ومصابيح الفضة . انتعش القلب ، ودارت الرأس . أسندت جزعها ، ورمت مركوبها ، شبكت ذراعيها خلف رأسها . وشرد منها البصر .

(اهتزت أعماقى .. حين نظر إلى . وحين وقف على رأسى وأشار إلى حركة الموج وهى تتجه إلى الشاطئ فى دوائر واسعة .. تمنيت أن أكون له . لو يكون لى وحدى . هذا المخلوق المدهش لو يستولدنى ! لو يشعرنى أننى مرغوبة عنده ! .. بل أنا مرغوبة .. تصطادى الوله فى عينيه ، والرعشة فى يده ، والآهة المسحوبة من داخله . أيمكن أن أكون له ، أعطيه ويعطينى .. أيمكن؟) .

طغى عليها الحياء . وأصابها ما يشبه الهلع .. فنهضت تدارى بكفيها حمرة الخجل .. حديث الأنوثة ، وفورة الرغبة أمامه ، ولو كان خيالا .. جرم خلقى . وما كان يحق حين ادفأ الفراش الجسد أن يستدفئ الخيال .. والرغبة لا تنطفئ . ظلت تسيطر عليها مع تقلباتها على الفراش .. ركزت خيالها عليه ، فتأكد أن رغبتها لن تواتيها إلا إذا نجحت من خلال تجاربها فى الوصول إليه .. يحقق لها الأمنية التى طالما داعبتها وعاشت فيها ، أمنية أن يستولدها رجلا لا يخذى .. رجلا يبهر كعين الشمس . يركب الصعب، ويمخر النيل ، ويغتسل بماء المطر . رجلا يحمل عطاءها للجميع .. ولا يستأثر به ، رجلا واعيا حذقا يستعصى على الأتباع والحاشية .

(جربتهم جميعهم .. أبيضهم وأسودهم .. طويلهم وقصيرهم ، حُرهم وعبدهم .. حتى الخصيان .. وسقطت فى التجريب ثم حلا جسمى فى عين

الكل ، واضحى جسدى المبهر مقصد العيون ، ونتف الجسم مرتع الأعضاء.. والجلد تحت اللمس يتهرأ.. حتى انكمش وتجعد.. فما باله هو.. هذا المخلوق المدهش .. يتعلق بالروح المطمورة ..؟ ما باله لا يعرف أن جسدا مهترئا وموزعا وموطوءا لا يمكن أن تعود إليه روحه من جديد ؟..)

وجدت نفسها تطوح بذراعها ، وتلوى بوزها فى أسى ، ندت منها ضحكة زاعقة وتمتمت .

- ترى أينجح .. ؟ أيمكن أن تعود للميت حياته من جديد ! ؟

وتقلبت فى الفراش ، ودخل السيد وزاحمه الصخب والجنون .. ترنح ، والكأس فى يده ملأى حتى الحافة ، وخيوط منسربة من قطرات الخمر تنسكب على الذراع وتصل إلى الكوع ، ثم تسقط على البساط .. رأت فيه امارات العربدة فواجهته ببسمة تشى بالحذر والخوف .

- مولاى أنا الليلة متعبة .

اقترب منها ، جسمه يهتز ، ويده ترتعش ، وفكه يتدلى .

- وهل يزيل التعب سواه ؟

فرت منه ، فانطرح على الفراش وسقطت الكأس .

فقد الجسد اتزانه ، وفارق العود استقامته . خرجت عيناه من محجريهما فى غضب ، كادت ترى الشرر يتطاير من حدقة العين .. وهو لا يزال مبهوتا ومذهولا . عجز عن نسيان ما حدث . كان فشله معها جرحا ينز فى داخله . لازمته الرغبة فى التعرف والمحاولة ، ضايقه أن من سبقه اكتشف وحاول وكاد ينجح ويصل إلى المبتغى ، ويدرك اللذة ويستقطر النشوة شرابا مسكرا، لكن الداهية لحقته . وهى منذ أن جاءت إلى القصر وعاشت بين

الجوارى والغلمان وهى تورّث ، تأخذها اليد وتسلمها للأخرى .. كانت مترعة بالأنوثة .. تفرّس فى ملامحها ، وبدت ملامحه بلهاء مسطحة .

(ما بالها اليوم انحسر عنها رداء الرغبة ، وباخت فى داخلها فورة الأنثى .. !

لماذا ينضح من عينيها تقزز مخيف ، ونفور شرس ، وكان الوهج فيض من يرى ؟! .. لماذا حين آتيها تتهرب ، وكان حين يأتيها تغضى حياء .. لقد أورثنى الهم ووجع القلب .. إعصار أتى وخلف الرماد) ..

لاح لها شفتاه المتورمتان ، خدش سمعها طحن الضروس وكز الأسنان .. اختلج فكه وتدلى . جاءها شعور خائف بأن الليلة لا تحتمل .

رأته مكوما على الفراش يئن ، علا صراخه المحموم وبدا فى عينيها عاريا ومكشوفا . تسللت نظراته إليها .. فارتجت ، كانت النظرة تحمل انكسارا . اقتربت منه ولمست وجهه ، ومشت بيدها إلى رأسه ، تغلغلت بأصابعها فى شعره .. وكان الشعر ملبدا ولزجا ، مست بباطن كفها أذنه فارتعش ..

هالتها خلجات وجهه ، فأسندت رأسه وأحاطته ، سحب يدها ولثم ، تقلص داخلها وتأففت ، نحى ذراعيها ، ولاح له الجسم مكورا والجزع فى انحناءته وميله راسما بدقة تكوين الصدر والخصر ، فشهق وجذبها بعنف ، مالت عليه .. وفى اللحظة التى كادت تلاصقه فيها .. وحمى الأنفاس اللاهثة تلفح الوجه ، وتعكس الداخل المنفعل بومضات تنثال من وهج العين ، تحمل شبق الرغبة فى المساس .. رأته .. رأته بركن عينها طيفا يرخى العين ، ويزاحم الأنفاس ، ويفصل اللصوق .. وكان الوجه الأشهب عاتبا

وغاضبا . نترت نفسها ، وبهت السيد .. استقام واحتد ، صرخ ، وخار .. صفعها ، وصفق بيده . أتاه الحاجب فنهره على تأخره ثم أمره فى صوت قاطع .

- الكرباج .

وقف الحاجب جامدا ومدهوشا لا يصدق .

- تحرك يا بغل .

ظل واقفا ، يرسل بصره بين السيد والجارية .. وأدركته الحيرة .

- هات الكرباج يا بغل .

ورمح الحاجب ، وأتاه به .. وما زالت الحيرة تطفو على وجهه . رأى الغضب ، والتوتر والذعر ، فحدث نفسه بأن الأمر خطير ، وأن السيد لابدّ سيخرج الليلة غيظه المكتوم .

لوح بالكرباج ، فانهدم فى عينها القصر ، وضاع فى التو بقية شعور نحوه ، ودفنت فى قلبها رغبة كان لا يزال لها بعض الظلال . وارتسم الرعب ، وتحرك ثقيلا على الوجه والعين والصدر . تقلص بدنها كله . وضح لها أن الأمر قد انتهى ، وها هو يأتى بالكرباج الذى هوى به على أجساد الناس بلا رحمة .. الكرباج أو الفراش .. رفع الكرباج ، فكادت تسقط .

زمجر فى حدة .

- اخلعى الثياب .

- مولاى

اشتد غضبه وصرخ .

- اخلعى وإلا شبحتك .

- مولاى لا يستبد بك الغضب .

- مثلك تقتل إذا عصيت .

- قتلتمونى من زمن طويل .

- وسأعيد قتلك مرة ومرة .

- أتتشفّى يا مولاى .

- أعطيتك وما فهمت .

- وأعطيتك وما صُنت .

هوى بالكرباج صارخا مولولا .

- ما وراءك غير السقوط .. وغير الألم .

وغاص لسان الكرباج فى الجلد ، تمزق الثوب وانشق اللحم وسال الدم وتكومت على نفسها .

انهضى واستديرى .

- مولاى .. ارحم ضعفى .

- انهضى فما رحمت أحدا .

وتحاملت وخيط الدم يتخثر، ومزقة الثوب التصقت وبان الكتف عاريا . مد يده ، مسُك الثوب من مكان القطع ، وأتى عليه .. وتعرت ، وبدا الجسد مبهرا . ولاح التكوين آية فى الجمال . صدمه خيط الدم ، والزرقة المدممة .. نقل بصره إلى الردف وهوى بالكرباج . تحملت الضربة ، وخرجت الآهة من صدرها مسحوقة ومهروسة إلى ذرات لا حد لها من الألم ، وكتمت الألم الهائل . ظل الكرباج يرتفع ويهوى .. وقفت عيناها وتصلبتا ، وتعب

ذراعه وهمد ، انطرح على المقعد لاهثا ، بحث عن الحاجب ، فوجده مكوّما على نفسه يرتجف .. حدق فيها بِغِلّ .. كانت قد تكومت ، ولملمت أشلاءها وسترت عورتها ، وبقيت عيناها مفتوحتين على اتساعهما . لمح بياض العين دما ، وكان بحيرة من فضة ، وبؤبؤ العين جامدا وثابتا ، وكان راقصا وحانيا . ونفرت الرموش صلبة وشائكة .. وكانت الدغل والخميلة . خال نظرتها صفعة مصمية ، فصرخ .. لاصقه الحاجب ممتثلا وراجفا ، وراكعا .

- خذوها وألقوها بالسجن ..

مال عليها الحاجب وسترها بملاءة ، أسندت جزعها على كتف الرجل ، وبان عليها الإعياء شديدا، وقبل أن تغيب عن ناظره استدارت إليه وتمتمت:

- ستموت بى .. وسأبقى أنا .

١٥

على قدر اتساع المكان ضاق فى عينيه . شاهد الصحراء تترامى أطرافها وتلتقى بالأفق ، فأدرك أن الالتقاء ممكن وإن كان صعبا ، وأن التحول طبيعة الأشياء وإن لم تلحظه العين ، وأن الوقت سيأتى وإن طال ليزيح العتمة ويداوى اللطمة. حدث نفسه وهو يرنو إلى البعيد بأن منابع النهر ستصب فى المجرى الطويل، ولن تضيع المياه فى تفريعات مسطحة وفاشلة ، وأن الطمى سيحمل الخير ، وأنها .. ستبذر الحب وتجمع الحصاد .

وقع بصره على الجبل ، فوجده شيخا وقورا أحكم حوله عباءة صمته . ود لو صعد إلى الشيخ لكنه ارتكز على حجر واستسلم لهياج النفس .

مسك عصا ونكش بها الرمال . قبض بعض الحصى ورماه فتناثرت ظلالا باهتة .. خط بالعصا على الرمل وجها وعينا وأنفا وفما ، أحاط الرسم بدائرة عريضة . تقافزت من حوله ظباء المكان . سحرته العين واهتز قلبه . مد يده ، فجاءه ظبى صغير وديع .. تمسح به وهش له . لاح له هدب العين خيطاً من شجر السوسن .. فأحاطه واستكان الظبى فى حضنه ..

(ها أنت تطوف وتدور ، والأرض تقصف بها الرياح . وهى لا تزال صالحة للبذار .. تبسط الأرض نفسها لها .. فكم اشتاقت إلى الثمر !. وكم آلمها الجفاف !. أحكموا القبضة ، ولكن الفيض لا يسجن ، وحب الفيض عندى اكتشاف وميلاد .. فلماذا حين أحببتكِ يرسو المجداف .. وتتكفئ القلاع؟) .

طالته النشوة فنكس رأسه ولم يطاوعه قلبه . ظل قلبه تواقا ، وخافقا ، تمسحت به الظباء .. فسبقه الوهج إلى العين ، والدفء إلى الصدر . أمسك رأس ظبى بين يديه .. رأى الوجه كله .. وتوقف عند العين .

(عين المها عين حبيبى .. تشع من السعادة .. وأنا .. وأنا الرامح وراءها .. ويعوقنى عن السفر حجاب من الحس .. أخذنى الطريق .. ونسيتك فى الطريق .. وهأنذا عائد إليك .. وأنا أعلم أن الوصول إليك مجاهدة .. فاللحظ فاتك.. وأنت على العرش ملكة .. وكم أخشى على المحبة من عواصف العشق ..)

سقطت من عينه دمعة فأجفل الظبى ونفر .

(من يدفع ضريبة الوصول والكشف ؟ .. فالعود تذكيه النار .

خاضت جاريتى التجربة . عرفت طعم المقاومة ، وأدركت أن المعدن

الأصيل تصقله النار .. أيمكن أن تتقدم .. وتقطف ثمر المجاهدة وتطأ فى خطوها الأشواك ..؟)

أثارت حوافز الظباء الغبار ، وعافرت نبتة صبار جفاف الرمل .. واهتزت النخلة فتساقطت حباتها ، ونقرت العصافير الثمار وزاحمتهم حمامة . أطل الفأر من شق فى جزع النخلة ومد رأسه ، ثم اختفى .. علت أصوات .. وخفقت أجنحة .. وتسرب إلى نفسه وجل .

(إلهى .. ما أصغيت إلى صوت حيوان أو طير أو حفيف شجر أو خرير ماء ، أو ترنم طير ، أو دوى ريح .. إلا ودلت على الكمال .. هب لى اللهم وقار الطمأنينة .. وفضل القرب منك ..)

(إلهى عرفنى عيوب نفسى لأتنزه عنها . أبتهل إليك خاضعا أن تغسلنى منها . وأذقنى طعم محبتك .. واحفظها الله وأعنها .. واغمر القلب بالضياء .. وساعدنا فأنت الغالب) .

تناهى إلى سمعه صوت المرأة ، فأرهف سمعه ، كان الكلام الساقط من أعلى الجبل قويا وصارخا ، (يا من أنت على نفوس الجبارين ..) خطف عصاه ومضى يصعد . شده منظرها . وأرعبه لهاثها . دنا منها فأشاحت عنه، لمسها فنفرت . وقع بصره فى عينيها ، فانكسر فى عينه الوميض .. زامت وهى تنشج ثم قالت :

- إذا اعتللت فلا تجعل علتك إلى مخلوق مثلك واطلب دواءك ممن ابتلاك .

- لا تنهرينى ! وخذى بيدى ..

اختلط فى عينها الأسف والإشفاق .

- لم يحن الوقت .

- أيطول ؟

- لا تجعل حبك مرساة للراحة ..

- ليس فى الحب راحة .

لا تقف عند الاكتشاف واستمر ..

- هو العذاب .. وأنت تعرفين !

- فلتحترق مجاهدة وعذابا حتى تصفو ..

ولملمت المرأة ثوبها ، وأحنت رأسها وعادت كما كانت كومة شعثاء من الشعر ولزمت الصمت . طغى الصمت فأحس بدبيب النبض . قال ملتمسا فى خفوت خشية أن يؤذى المرأة .

- الا تزيدينني يا أخت ..

رفعت رأسها على مهل وقالت :

- ليس قبل أن تذهب إليها ..

- أو عرفت .. ؟

عادت إلى وضعها السابق وهى تتمتم فى أسى ..

- حالك لا تغيب .

١٦

- أتبكين ؟

- إننى أزجره فيستعصى على .

- لقد أثر الدمع فى خدك .

- وهل يحمل غير الألم ؟

- وهم لا يفهمون ذلك ولا يدركونه !

- أنقذتهم .. ثم باعونى .

- وباعونى أيضا .

- ألا تهتم لذلك !

- لا .. ولكنهم سيدركون .

- فرشت نفسى لهم .. وأعطيت .. وكانت المجاعة شديدة .. ولكننى تحديت السيد ، فتحت الأبواب .. ونثرت الغلال .. و ..

- ولكنك نسيت ما هو أهم ؟

- ليس هناك أهم من أن تمسح دمعة محزون .. وتدفئ قلبا باردا ..

- لقد أدفأت المعدة ولم تصلى إلى القلب . ليس بالطعام وحده يتحقق الدفء .

- كانت المجاعة وحشا ، أنشبت الأظافر والمخالب ، وكانوا يحتاجون إلينا ..

- ضاعت أنفسهم منهم فهانوا على غيرهم . تركوا حقوقهم فماذا تنتظرين ؟

- تشغلنا الآن أمور الدنيا ..

- رأيت فى العودة إليهم خيرا ، وهم يحتاجون الفيض ، وفيض الله يا جارية يغمر الكون كله ، وقريب من القلب.. وإذا تعرف القلب وصل ..

- الوصول إليهم مجاهدة .

- لا وصول بلا مجاهدة . تذكرى ذلك دوما ..

- ولكننى أعطيتهم ، وجاهدت فى سبيلهم ..

- كان العطاء من قصر السيد ..

- ولكننى فتحت القصر كله لهم .. وبؤت من الغنيمة بالغضب منه وبالتجاهل منهم ..

- إنهم يحتاجون للحب .. وكلنا نحتاجه..

- وأعطيته ..

- لا يكفى أن تفتحى الأبواب .

- لقد فتحت قلبى .

- كان الحاجز سميكا فلم يشعروا بك ..

- كسرت الحاجز .

- مالك لا تدركين أن العطاء عطاء الله ، وأن الاستئثار به ذنب كبير ..

- لا تحتد .. فلقد خاطرت بنفسى فى سبيلهم ، والسيد لا يغفر لى ذلك وأنت تعلم ..

- لقد أدركوا بعد أن أفاقوا أن العطاء صدقة .

- وحين أفاقوا نسوا ..

- المال مالهم . الا تدركين أثر ذلك عليهم .. ؟

- لقد قدمت ما فى وسعى .

- إن فى وسعك الكثير ..

- وهم يبغضونه ، ويكرهون من حوله . إنهم لا يحبوننى ..

- هى العدوى بالمجاورة .. فمتى تعودين إليهم ؟؟ إن فى العودة إليهم والاختلاط بهم حياة جديدة ..

- كم أتعذب !

- لست وحدك .

- أتتعذب ؟

- بنفس ما تتعذبين به .

- لقد قدتهم وهدمت بهم الأبواب والحواجز .

- يجب ألا نغضب إذا لمحنا نصلا فى يد الصديق ..

- لم يعد صديقا ؟

- بل نغتفر له ، فلابد أنه يرى ما لم نره .. فلا تحزنى .

- إن الحزن يقيم فى قلبى ..

- وآن للغيمة أن تنسكب ، فلا تبالى فهم يحتاجون إليك .. انهضى ولا تحفلى بالأشواك . أخرجى منهم الحقيقة المطمورة واحرسيها .. وداومى على اليقظة والسهر ، ومقاومة النفس .

- لم أعد فى نظرهم سوى غانية يختصها السيد له ..

- أتعودين للبكاء ؟ ادخرى الدمع لأيام قادمة .. فمن يدرى ما تجود به الأيام ؟

- إن عينى تدخر بحورا منه ..

- إنى أقرأه وهو يتحدر على خديك ، ويعكس فى رقرقة ما بداخلك .

- أكاد أموت من ألم الشوق .. وعذرى أننى أحاول لعل شيئا يتحقق .. ولعلنى أرسو يوما على الميناء ، وأقتنص الشوق ، وأكتنز فى صدرى الحقيقة .. ولعلهم يوما يدركون أن جزاء الحب حب ..

- هى ضريبة من يعطى .. فاكسرى حدة النفس وانشدى رضاه .. فالرضى لا يتجزأ ..

١٧

حبسنى فى حجرة نائية عن القصر ، وأغلق الباب . يداه هونا على مقبض الباب بوحشية ، لم تَفتنى الرعشة فى الأصابع ، واختلاجة الذراع . طفت بالمكان .. أحسست بسجنى ، فأدركت كم يتعذب المسجون ؟ وكم تشتاق النفس وتتعذب للخروج من الأسار ! .. ثمة فتحة دقيقة فى أعلى الجدار الأملس . يشع من الحجرة برد وتنشع منها الرطوبة . أصوات الألم ، وانسحاق الآهات يلاحقنى .. طالنى ما طال غيرى فعلام أبقى ؟ أيمكن أن يأخذنى إلى الدهليز والجب فأرمى فيه وأموت فى برودة المكان ، وبصحبة الثعابين ؟ .. أيمكن أن يصل إليّ ، كما وصل إلى الشاطئ .. وأنقذنى .. ؟ الزمان لم يعد الزمان ؟ والناس لم يعودوا أناسا ، فمتى تقهرين الخوف فى نفسك ؟ .. داومى النظر إلى الفتحة .. فمنها يتسلل النور ويغزل الخيوط بينك وبين الكون كله . ما عدت أطيق الرجفة .. وأنا عارية إلا من ملاءة الحاجب .. أكان يجب أن تمرى بالتجربة لتدركى أن العرى فى الداخل أقسى على النفس من عرى الخارج ..!

رغم أن كثيرين يموتون به لكن قلبى يزغرد بالفرح . غريب فى مأتم الجسد أن ينتشى القلب ، ويسترد الجسد . وخيوط النور المبثوثة تحمل الحب والبشارة .. صادقينى يا عين الشمس وصاحبينى يا نجوى القمر ، ووشوشينى يا نجوم الليل ، واقتربى منى يا هوام المكان .. حتى أحس بالفرحة تغمرنى . أفى السجن انفساح ؟ وفى الألم بشارة ، وفى التحديد تكوين جديد ؟ .. الأشجار العالية كمئذنة العارف

بالله تلوح من بعيد ، تهتز ، وترقص الأوراق ، وتحتفى بالنور . تلملم الشجرة أغصانها، تحرس ما كنزته بالنهار لتستدفئ به الليل .. أتبوح لى الأشجار بالسر ؟ فمن يدرى ؟ فقد ترتفع النفوس وتصيبها عدوى الأشجار العالية .

١٨

(ودارت فى المكان الكئوس ، وكانت كأسى مترعة حتى الحافة ، والحباب عاليا وبراقا ، وبدا الصحاب فى عينى نتفا من ملامح مجهولة .. غاب عنهم بريق الزمان الذى تعودته ، اصطفوا وتمايلوا .. فكانوا كصف من الأشجار هبت عليهم ريح عفية فكادوا ينقصفون . أسبلوا العيون وتراخت اللحى . وقف الشيخ فى الوسط ، ولهثت الحلقة حوله بالأذكار ، وهو فى الوسط مصلوب فى عيون ترأرأت أحداقها ..)

لزم مكانه . فضل أن يظل قابعا ، ولا يشارك فى الذكر . خرق سمعه الدق فتأوه ، وتغضن وجهه . رفع رجل شارة حمراء فنهض ونكسها .. صرخ فى حدة .

- ليس سوى الأخضر ..

وقع بصر الشيخ عليه ، وظل يداوم التسبيح . علا صوت واحد منهم .

- الليلة للأخضر ..

حدّث نفسه بأن الأخضر جزء منها وإشارة عليها ويجب أن يسود حتى فى أشد الأمور خصوصية .

تمايل المنشد وغنى .

صغير هـــواك عـذبنى فكيــف بـــه إذا احتكمـا
وأنت جمعت من قلبى هــوى قـد كـان مشتركا
أمـــا تــرنى لمكتئب إذا ضحك الخلى .. بكى

اجتاحـه شعور بالضيق ، وانثالت نفسه طافية كحباب الكأس ، أخرج مسبحتـه ، وتقاطرت حباتها فى رنين موقع .. صرخ واحـد من الذاكرين ورغُونه بين الأشداق ..

- صغير هواك عذبنى ..

توالت الخبطات في ترنيمة موقعة . شهقت من الخلف امرأة وصاحت :

- كيف به إذا احتكما ..

واصل المنشــد إنشـاده ، فــأسـرع الذاكـرون ، وطغـى الذهول . طاف خادمـهم يجمع الكئوس ، وجســمه مع الإيقاع يهـتز ، لمحه الخادم فـبان له ساهما وحزينا ، رفع رأسه وقال :

- أفق قد أفاق العاشقون .

التقت عين الشيخ به فحدجه بقوة وواصل التسبيح ، غام فى عينه المكان وعلا فوق الرءوس . أتاه الخادم بكأس القرفة المزوجـة بالزنجبيل فعبّه دفعة واحدة ، كان الشراب حارقا ولاسعا . وانعقدت فوق الرءوس غيمة مظللة. لاح له القصر ، وهاله شرخ بطوله يتلوى ويتسع ، وسرعان ما تهدم .. أطل من الغبـار وجه معفـر ، تملاه ، واندهش . وكانت بسمـة خفيفـة تبدو على استحياء وحزن ثقيل يكبس على الوجه . أسند ظهره إلى الجدار وكف عن اللهاث ، استرخت أنفاسه فى بطء وضعف .

انقشــعت الغيـمة وبقى هو مذهـولا . داهمه القلق فارتعـب قلبه . رفع

رأسه ونظر إليهم فوجده يحدق بقوة . صمت الذاكرون وخيّم الصمت خال الصمت يتمدد فوق الصدور ، ويزاحم الأنفاس .. لاصقه الشيخ وحادثه .

- أفيك أنت يرتع الهم ؟

رمقه وصمت .

- هل من يعرف يزداد همه ؟

- بل يزول الهم منه .

- لكنك منذ أن بدأنا الذكر وأنت ذاهل عنا . أفضلت الانفراد بنفسك أم تراك تحس بوحشة ؟

- يا شيخى .. من يعرف لا يستوحش .

- إذن ففيم الحزن .

- بل هو السرور .. لقد تجلت وجها مبسوطا فى الغيمة ففرح القلب .

- أهو الشوق ؟

- وهل تغيب حتى أشتاق ؟

- ولكنك فى الشوق عجب .

- وما وجه العجب يا شيخى ؟

- لقد خلطت بين الشوقين .

- أليس فى الامتزاج سمو ؟

ابتسم الشيخ وجاس بيده فى لحيته .. وبدا مهموما ..

- إنه السكر بخمرين .. أترى يستقيم الوصال ؟

- إنى أراهما - يا شيخى - لذتين تلتقيان .

نظر الشيخ إلى المنشد ، وهو لا يزال يحتسى كأسه ، ويجفف عرقه ..

- ذكرنا ببيت الوصال .. فوالله لقد اختلط الأمر .

وضع المنشد الكأس ، وكبس عمامته . أسقط الشارة الخضراء ، ورفع كفه . لاصقت الكف الوجه ، وتدلت فتحة الكم . الذراع أبيض مكتنز ..

دهش الشيخ حين رأى الذراع وتمتم فى صوت لا يبين .

- كيف لزاهد مثل هذا الذراع ؟

تنحنح المنشد وتغنى ..

لم أذق طعم وصلك حتى ∴ زال عنى محبتى للأنام

وجه الشيخ حديثه للمنشد ..

- كف .. فقد أتيت بالمطلوب .

ثم تفرس فى وجهه وقال :

- لا يستقيم الزهد والاكتناز .

ضحك المنشد .. ومال يحادث الصحب فى خفوت . توجه الشيخ بالسؤال ..

- أرأيت كيف يكون الوصال ؟

- المحبة موصولة ..

- لا أراها كذلك !

- الطريق إلى المحبة الكلية مفروش بمحبات جزئية .

- أتبيع الأعلى بالأدنى ؟

- ومن قال أن من يصل إلى الأعلى ينسى الأدنى ؟

- هو التشتت فلا تعاند .

- بل قل هو الامتزاج ..

ثم نهض فى عنف وواجه الشيخ .

- فيم كل ذلك ؟

نكس الشيخ رأسه وقال :

- حالك لا تغيب عنا .

هرول إلى الخارج وتركهم خلف دهشة على الوجوه ووجعا فى قلب الشيخ . سمعوا صوته فى الخارج يتردد .. والهلع يقطر منه ..

- يا غياث المغيثين أغثنى .

١٩

نزلا متخفيين ، لمست أقدامهما الدرج بحذر وانحنيا يسارا ، مالا إلى الفسقية واتجها صوب الممر الضيق ، خفتت الأضواء ، وانطفأت المسارج ، استترا فى جذع شجرة ضخمة ، وتسمّعا . الحجرة النائية قريبة منهما . وفتات كلام وصلهما متقطعاً صحبه نشيج وتأوهٌ .. ضغط كل منهما يد الاخر ونطقا فى صوت واحد ..

- أتسمع !

أمال أحدهما رأسه وتلصص .

- كدأبها كل ليلة ..

رفع الآخر رأسه إلى السماء ، وكانت مرصعة بالنجوم .. خيِّل إليه أن نجوم الليل تقترب من الأرض حتى تكاد تلمسها ..

- هى الآن تطل من الفتحة تناجى السماء .

- ما أراها إلا مظلومة ..

- أنستطيع أن نحادثها الليلة .

- إنى سمعت فى جناح السيد حركة .. وأخشى أن ينزل .

- كان بودى أن أنقل إليها حزن الناس فى القصر .

- هى تعلم أننا نتألم لها ..

- كان كالوحش لا يرحم ..

همس لصاحبه فى حذر .

- قلنا لها : الطاعة لمثلها أمر .

احتد صاحبه وقال بصوت مكتوم .

- تحملت ما لا يقدر عليه أحد .

- وفى الرفض الموت .. وها أنت ترى .

عاود الدمدمة المجروشة تحت كزة الأسنان .

- إننا فى حاجة إلى من يقول لا .

- وماذا بعد .. فها هى مرمية فى محبسها .. مهجورة .

- أتقول مهجورة !

- بم تسمى وضعها الآن ؟

- قد تكون مهجورة منه .. لكنها تغمر القلوب وتسكن النفوس ..

- لو رأيت اليوم السوق لرأيت عجبا ..

- ماذا به ؟

- كان السوق باهتا ومضروبا ، خيمت الكآبة على الوجوه .. وبدا القلق فى كل عين .. والنظرة تحمل سؤالا بلا جواب ..

- أأدركوا ما حدث !

- لم نعد نراهم على الأقل فى القصر ..

- ربما لأن السيد لم يدعهم لسوء حاله .

- لا أظن .. فالخبر انتشر والتوت القلوب .

شد جزعه ورفع رأسه ، واستدار تجاه الفتحة . ودّ لو يرفع صوته ليصل إليها ، فى سهرها وتهجدها .. خشى على نفسه وعليها .. أتاه الإحساس بالضآلة .. فهو ليس إلا خادما افتقد نفسه ، وضاعت منه أشياء كثيرة لكنها حين جاءت أعطتهم الضائع ، وهبتهم فيض نفسها ، جمعتهم وحدثتهم .. خصصت لهم يوما .. يأتنسون فيه ، ويتسامرون ، شبكت قلبهم بحبها فتعلقوا بها . شعر الواحد منهم بنفسه ، وأهله ، وبالمكان ذاته .. فضاقت الهوة فى عيونهم ، وأحسوا بالأمان . زجر هاجسا فى نفسه يفح بألا مفر من العودة ، وأن الهوة التى ضاقت ستعود إلى اتساعها .. فقال فى أسى وحزن :

- أكان يجب أن تتركنا ؟

- لعله خير .

- لقد ضاعت البسمة .. بشير الخير منها .. أين هى حين كانت تقفز إلى الوجوه كلما تهادت خطواتها أمامنا ؟

- كانت المتعة لنا .. وكانت الأمل .

نكس رأسه وخرج صوته ممطوطا ومهموما .

- وكانت الأنس لهم .

- ذكرتنى بالأنس .. فأين هو ؟

- من ؟

- السيد

- أخبرنى الحاجب همسا أنه يعاقر الخمر ليل نهار .

- لا ينساها .. وعنده مئات الجوارى .

- إن نساء البلد كلهن لا يُغْنين عنها .

- ولا الرجال !

تصورت الحاشية أنها تستطيع ، فجمعت المغنية والمطربين ، وأصحاب الكدية .. والراقصات .. و .. و .. ولا فائدة .. وظل كما هو مهموما لاينساها .

- أتراه نادما ؟

- مثله لا يعرف الندم .. أنسيت ماذا فعل بها يوم المجاعة ؟

- تحملتْ قسوته وشدته .

- أعاد التجار ما أخذوه من القصر فهدأ ..

- لقد خافوا عليها .. إنهم لا يفرطون فى كنزهم .

- هم لا يبغون سوى أن تظل الأمور رضية بلا ضجيج .

- حتى يثروا .

زم شفتيه فى غضب وقال :

- وحتى يظل الأنس معقوداً فى القاعة الذهبية ..

ضغط صاحبه بيده على كتفه .. خشى أن ينفجر لكنه تأبى وخبط الأرض برجله . جفل الآخر وارتعش ، هدهده ، ووضع كفه على فمه ، نحى يده بقوة وزعق .

- كان الأولى بالوليّ وهو يتقدم الناس أن يذهب بهم إلى المتاجر .

- هيا بنا فإنى أسمع حركة .

صلب عينه فى السماء ، ثم جال ببصره فى المكان .. توقف عند الحجرة النائية .

- ليكن عذره أنه بدأ بالرأس .

وضح لهما أن أقداما تدب على الأرض .. فانزويا .

٢٠

زاحم الليل لهاثه وقلقه ، ومضى يدب فى الممر الضيق وجسمه منطرح إلى الأمام . بدا عليه الترنح ، حاول التماسك فلم يقو فاستند على كتف الحاجب . وصلا إلى الحجرة النائية . تقدم الحاجب ، ووقف السيد مستندا على الحائط ، والكرباج فى يده تدلى ولامس الأرض . أخرج الحاجب المفتاح وفتح الباب. صر الباب صريرا فهبت واقفة ، واجهت الباب وظهرها إلى الحائط.. كان صدرها مائلا وجذعها منضغطا إلى الجدار . اتسعت حدقتا العين ، رمقته يدخل ويحكم الرتاج فتقلص داخلها وعلا النبض فى الصدر. أقام جزعه وخبط فخذه بالكرباج ..

- أرأيت مصير العاصى ؟

أهابت بالقلب أن يهدأ وصمتت ..

- تصورتِ أننا لا نقوى عليك .

دار حول نفسه وحزم وسطه بالكرباج .

- إلا إذا جمح خيالك وتخيلت أنك فوق ..

أشار بيده إلى أعلى ، واستدار للحاجب فلبد فى ركن قصى ، وظلت هى فى صمتها تتابعه .

- ها أنت مرمية فى ركن مهجور .. وعلى قيد خطوة منك قصر فخم .. مترع بالأنس والبهجة ..

شد ساقه فترنح ، فلاصق الجدار .. فاقترب منها وهمس ..

- ولا يزال للخلصاء من القوم مكان للمتعة .

مط بوزه وازداد اقترابه ..

- ولا تزال أبوابه مفتوحة .. ! ..

رمقته بركن عينيها ، وكان صدرها على إمالته فاختارت أن تجلس فجلست . صرخ فيها بحدة .

- ها أنت تتخلين عن أصول اللياقة .

نهرها لكنها داومت الجلوس .

- ألا تراجعين نفسك ؟

نطقت فى حسم :

- كان لابد من الفرار إليه .

نظر إلى الحاجب فى دهشة وقال .

- الفرار .. ماذا تعنى ؟

انكمش الحاجب خائفا وغمتم فى رعدة ..

- ليس من أحد .

- إذن ماذا تقصد ؟

- مولاى يعلم أن الباب موصد والمفتاح معك .

بادرت فى ترنم مؤثر .

- ليس دونه حجاب .. ولا باب .

كتم غيظه ودمدم فى سخرية .

- لابد أنه شيء خارق .

رفعت رأسها وقالت :

- ليت الغافل يعرف داءه .

- رماك عصيانك إلى السجن .. وعداك السجن بسوء الأدب .

وحرك الكرباج ، وتلوى فى الفراغ .

- الا تحسين بوحشة ؟

جاءها الأمـان ، وحطت عليها الطمأنينة ، فـارتخت عضلات وجـهها ، أنار الوجه وانبسط .

- إذا أوحشنى أحد من الخلق .. آنسنى بقربه يا مولاى .

ارتج المكان بضحكة صاخبة وساخرة .

- أرأيت كيف أثر فيك السجن ، وكنت العاقلة الذكية ؟

واجه الحاجب وقال متهكما ..

- الآن أدركت .. أما والله إنك لبغل .

مال ناحيتها واحتد .

- لا تحدثينى حديث من يلبسون الأسمال .. فإنى أرى عقلك قد ضل .

- آن الأوان أن أخلع عنى ثوب الراحة .

- وتبيعين الجاه والسلطان .

اقترب منها حتى كاد يلاصقها .

- لا اظن .

لكز الحاجب ضاحكا ، فابتسم الحاجب وانشرح صدره ، فمولاه يضحك .. وقد لازمه الحزن والبكاء منذ أن أمر بسجنها . حدث نفسه بأن القلب أضاء ، وأن السيد غفر .

- ما رأيت امرأة تفعل فعلك .

حاذاها ، مد يده وشد الملاءة ، أزاحها لكنها تشبثت مذعورة ..

- منذ أن تولد المرأة وعينها على الجاه والسلطان .. وإذا لم يجئها سعت إليه ..

نهضت بحذر شديد حين أقعى أمامها ، رمقها الحاجب ، ألمح لها بتمتماته وحركة يده أن الأمر يستدعي الرضى . قبض يده وكورها .. كان يريد أن يقول أن فى العناد هلكة .

- لم نكتف بما رزقنا .. ولم نأتمر بما كُلفنا يا مولاى .. والعين يجب أن تتطلع إلى الخير كله .

- لا تطيّرى عقلى .

أحكمت حولها الملاءة ونقلت بصرها بينه وبين الحاجب .

- ليس فيما أقول خبل .

- بل هو الخبل .

حادث الحاجب محتدا وغاضبا .

- قل لها من يتأبى على الجاه والسلطنة ؟

خطا الحاجب من ركنه خطوة ووقف . حك جبهته، فتح فمه ولم يطبقه.. أرسلت بصرها فخرج من الطاقة يتملى .. خيل إليها أن أغصان

الأشجار فى حركة انسـيابية ، وأن أفراخا صغيرة تختفى وتظهر . رجحت أن هنا عـشا، وأن الأب لـم يعد بعـد من رحلتـه ، وأنه لم يقـدّر لهم تناول الحب .. وذابت صـوصـوات العصـافير وحـواف الشـجـرفى أعلى الأفق وضحك القمر.

- مولاى لا تغضب .

- إن غضبى منك كبير .

- كيف استرزق من لا يرزق ؟

- عدنا إلى ما لا يجدى .. ثم .. أنت تعلمين أن يدنا مبسوطة لك دوما. والا شيء بعزيز عليك ..

نطق الحاجب فجأة فانطبق فمه .

- إنك الخير كله يا مولاى .

- قل لها .

أسرعت وقالت :

- إنما الخير أيها الحاجب من فضله .

وعاودت النظر ، عـبر الطاقـة إلى بعيـد ، فاغتم السـيد وهاج ، والقـمر يضحك.

- لقد فقدت مناصريك .. فليأت من كسرت لهم الأبواب وفتحت لهم الخزائن . أتحسبينني نسيت ؟

- من يدرى يا مولاى ؟ ثم .. كيف للعبد أن يستنصر عبدا ؟

جذب الحاجب من طوقه بشدة وصاح .

- قل ماذا أفعل ؟

- مولاى .. الصبر .

ونقدم الحاجب ، كـان كمن يتسلل خوفا .. وكـان الإشفاق يطفح على وجهه .

- لا تزيديه سخطا .

تبسم الثغر ، وأضاء ، وعاد البصر السارح فى الأفق إلى صاحبته ليضيء ، واختلج فى الصدر قلب ينبض ليدفئ . وغمر الجسد فرح طرى معطر وابتل الفؤاد بقطرِ الحب ، فأخضلت العين بالدمع .

- وكيف أسخطه فى رضى العبد ؟

هوى بكرباجه عليها فزامت متأوهة .

- بل أنت الأمة والجارية .. والمرأة المستباحة .

وسقطت الدمعة. ونبت فى القلب غصن الفرح . وظل القمر يضحك .

٢١

قادته خطواته إلى النهر ، لمحهم من بعيد يتناثرون فى الأرض ، انحنت أصلابهم، وارتفعت فى الهواء فئوسهم. تتساقط حبات العرق تحت أقدامهم .. تجسموا فى عينه شواهد للموتى فأدار وجهه للنهر . كان قلقا ومغتما ، وكان النهر ينساب انسياب الثمل ، تتراقص أمواجه فى حذر واسترخاء ، تنعكس عليه ضياء الشمس فيبدو فاتنا كنهر من النجوم . خيل إليه أنه يطلق الأنغام ويهتز متخطرا . شهق بعمق ثم زفر فى استرخاء .

(الخير يُعدى .. فلماذا يا نهر لا تمنح الناس عدواك ؟ لم يأخذوا منك غير الماء ، وتركوا فيك التخطر والكبرياء ونسوا فيك التغنى والاحياء) .

أمسك حجرا ورماه ، فغاص وخلّف دائرة من التموج ، تتابعت واتسعت . كانت الحركة تسلم للأخرى .. حتى لامست الحركة الأخيرة فى إعياء وكسل جرف الشاطئ . افترت شفتاه عن بسمة حملت قدرا من الإنكار .

(لايتحركون إلا الحركة الأخيرة .. إنها الفورة وسرعان ما تخلف همودا وبياتا) .

كوم قبضته وسددها فى الفراغ .

(مزقتَ صدر الجبال والتلال .. حفرتَ الوديان وعبرتَ السدود ، حطمتَ العوائق .. وزرعتَ الورد حيثما سرت . فلماذا يا نهر حين يتنفس منك الزهر تنسحب الأنفاس من الناس ؟) .

فرد ذراعيه ، لهف نفسا طويلا ، أسند ظهره على جذع الشجرة .

(فيك يضحك البرعم ، ويمتص النور ، ويعاكس القانون فى امتداده . يبدو البرعم أكثر انتشاء وفرحا .. لقد ضحك ..حين تمرد ، فلماذا يا نهر حين انسبت كالثمل سحبت منهم الضحك ، وأبقيت البكاء ؟ .. ضننت بالتمرد وزرعت الموات فى النفوس . أم ترى يا نهر أن نفوسهم لم تطاول البرعم بعد ؟) .

أفاق فوجدهم بجانبه ، وحبات العرق تعكس ضوء الشمس الغازية فتبدو على الوجوه كحباب الكأس . حدق فيهم .

(يقطر الداخل عرقا ، يتقاطر على الوجه لامعا ووضيئا . هو حباب الكأس فى ليل الحضرة .. فلماذا تمنح الكأس النشوى ، ويخلف العرق الإيلام ويحرق الأكباد ؟) .

كفّ عن التحديق .

- وجدناك صامتا متأملا .. فتركناك .

قال أحدهم :

- كأنك كنت تحادث النهر .

نطق آخر :

- جئنا نلتمس منك البركة .

فردَ يده وأشار إلى النهر .

- ليس من بعده بركة .

ضحكوا ، وكأنما ظنوا أنه يتندر

- لا أحد يجهل .

- إن قطعة منه تكفينا عمرا بأكمله .

- لو سألتم النهر لأجابكم .

- مزاجك اليوم معتدل .

- إن النهر يعرف منبعه .. ويعرف روافده .

خيل إليهم والصمت يلازمهم أن ثمة أمرا يريد إلقاءه عليهم .

- ويعرف أنه يحمل حمله ليغمر به الكل .

تأنّــى ورمقهم واحدا واحدا ..

- أرأيتم نهرا يستأثر بمائه ؟

أسرع واحد منهم وأجاب .

- ما رأينا .

تابعه آخر ..

- ولا وصلنا من الأجداد .

وضع واحد من الجمع فأسه على الأرض وفرك يديه ثم قال بتأفف .

- لا أفهم ..

ثم اقترب منه .. وكانت حبات مسبحته ترن فى وقعها وتتابعها .

- ماذا تقصد ؟

جرت حبات المسبحة بين أصابعه سريعة ، متدفقة ..

- لقد تاقت أنفسكم إلى قطعة ذهب .

- ومن لا تتوق نفسه للذهب .

انتصب وشد جزعه .

- لكنك تجهل مثلا أن الوالى شحاذ .

عاودهم الضحك، وحدسوا أنه اللحظة مبسوط وربما يتحدث باللسان .

- تضحكون وكأنما أقول نادرة .

التزموا الصمت وتعلقت أبصارهم به .

انحدر مع جرف الشاطئ ولامس المياه . ضرب الموج بكفه فانشق ، عب الماء بكفيه ، انثالت قطرات الماء خيوطا موصولة براقة .

- انظروا .. انظروا إليه .. تأملوه وأحبوه فهو الباقى .

أشار إلى الأرض بوله وتابع ..

- لن يكون لها وجود بدونه .

أحنى رأسه ، وغمتم فى أسى .

- لا تضحكوا إذن ، فلأننا لم نأخذ من النهر الحركة عجزنا عن إدراك كيف يكون الوالى شحاذا ؟

توجهوا دفعة واحدة وكأنما يحمل كل واحد منهم تساؤله هما .

- ماذا يقصد ؟

ضحك واحد منهم وقال ساخرا :

- إذن فهو ينافسنا .

سيطر على آخر اهتمام مباغت فسأل فى عجب ..

- كيف يتسول من رصّعت جدران قصره بالذهب ؟ .

رد واحد بسرعة .

- أتعرفون من أين جاءه ؟

التزموا الصمت وظلت عيونهم معلقة به .

- إن حبات الذهب هى دموعنا .

تلفتوا فيما بينهم ، عقدت الدهشة ملامحهم فزموا شفاههم وظلوا على صمتهم .

- أليست الدموع من الإيلام ؟

طأطأوا رءوسهم ، وبدت عيونهم قلقة حائرة .

- و .. ألم يأت الإيلام من القهر ؟

- أما عن الإيلام والقهر فهما إرث .

- أعلمتم من أين جمع الذهب والياقوت ليرصع بها كرسيه وتاجه ؟

- أنت تعلم ، أننا لا نعلم .

- جمعها من أحداق اليتامى ..

شكلت الدهشة وجوههم .. عاجله واحد قائلا :

- ما علمنا امرأة تدمع ياقوتا أو ذهبا ..

- كان الياقوت بلون الدم .. لقد سـقط الكثير منكم ملطخين بالدماء .. سقطوا إعياء وجوعا .. وألما وكمدا .. تذكروا .. أنه يريد كل شيء .

- لم يعد لنا شيء .

- إنه لو استطاع لملك النهر والهواء .

بانت فى عين أحدهم فرحة محزونة فصرخ فى حدة مدهوشة :

- كان الذهب ملكنا ! ..

رد عليه آخر ، وحدقته مفتوحة على قدر اتساعها .

- والياقوت !! .

ابتسم ، وكانت بسمته تحمل معنى ما يدمدمون به .. وتعكسه .

- والتاج المرصع .. وكرسى الحكم .

ضحك واحد باستفزاز .. وبلا مبالاة .

- والقصر أيضا .

- والسلطان نفسه ..

رددوا فى نفس واحد مرتعش .

- السلطان !! .

وبهـتـت الوجـوه فجـأة .. وغطتـهـم سحـابة معـتمـة تقطر ألما مشـوبا بالحذر . رفعوا فئوسهم .. واستسمحوه .. واستدارو .. ومضوا . كان ينظر إليهم بشوق . بدت عيناه وهى تـنظر إليهم كـأنما تنتظر .. وكأنما الشـقوق ينبعث منهـا شعاعات كالسـهام .. فلعل فأسا قوية حين تـنهال على ذراتها تجدد الخـصوبة ، وتزرع البذرة . ولعل العـرق حين يتجـدد انسيابه يعطيـها اللقاح .

نكس رأسه ، وتوجه إلى النهر وذاب وجدا .

(طار العمر أيها النهر ، أتراه لا يخلف سوى حفنة من الريش تبدو أثرا لجسد فنى وانتهى ، كأثرات الهموم التى لا تخلف سوى الاهات ؟ الآهات المغمورة بدخان النفس ، والمرسومة على جدران البيوت .. أوقعتنى يا نهر بين الحب والشرك ، وأدررت منى مخزون الألم ، وأفضت بعد الفيض كأسك الثملى ، لكن من يأتى بفارغ بال كبالك .. فالدمع الذى يصدر من قلبى جمده موجك .. فمتى يفيض الفيْضان ويغمران النفس والوجود ؟ .

ومتى يصحو الناس من خمرة شوقك .. أيها النهر الآسر القاسى ؟) ..

٢٢

كتم السيد غضبه . لاتفارقه لحظة أن أتى بهم . وكسر الأبواب . وما فتئ جرحه ينز . زاده اتساعا رؤيته لها ، وهى توزع معه الثياب والكساء والطعام والشراب .. أكلته الغيرة وهو يرى اليد تمسح بالحنان آثار الجوع وآهات الألم . لم يستطع أن يكتم خوفه وهو يرى آثار بريق يطل من العيون . ولولا أن التجار أتوا لطق من الغضب . ساءه مرحه فى القصر كأنه السيد ، هذا الذى يلبس أسمالا قذرة ، ولم يغتسل منذ ولد .

تواكب على القصر الجماعات ، كأنما هو السيل .. ضاع الجاه واختلط العبد بالسيد . لقد قامت القيامة . ظل يقرع الخدم كلما يراهم .. فهو لا ينسى تقاطرهم وهم يخدمون .. يضعون ويحملون .. وكأنما يتصرفون فيما يملكون . ولما فرغت آخر طائفة من الجوعى وانصرفوا ، أتاها هائجا وغاضبا

. كظم غيظه حين رأى فرحا يتماوج على وجهها ، ويهدر كموج النهر ..
رأت فيه الغيظ المكظوم فبادرته قائلة :

- إلى من يذهبون إن لم يأتوا إليك .

انفثأ غيظه وقال بغلظة :

- القصر ليس مباحا للعامة .

رمقته وهى تجاهد أن تستل غضبه .

- رغم أنك يا مولاى وصلت بالعامة .

رد ساخرا .. وشفتاه ترتعشان .

- ولذلك كان حدبك عليهم واضحا .

قال بحذر :

- إن ما أخذوه حق لهم .

- أتسمين النهب حقا ؟

- لا تنس يا مولاى أن ما نرتع فيه من ترف جاء منهم ..

- أياتى من وراء الرعاع خير ؟

اقتربت منه وابتسمت .

- أليس العامة هم ..

قاطعها بعنف - لا تصدعينى ، فكفانى صداع اليوم .

وخرج ثائرا . مال عليه واحد من الحاشية .. وهمس .

- فى مثل هذه الأحوال يا مولاى .. من الحكمة أن نحنى الظهور لتمر العاصفة .

أشاح بوجهه ومضى .

٢٣

- انظر
- إنه هو
- لقد لبس الخرقة ثانية .
- لقد خلعها بعد اقتحام القصر .
- غضب السيد وحملها له .
- أيخاف منه ؟
- ومن لا يخاف ؟
- أصحاب الحال .
- هم يتسترون بالخرقة والأسمال .
- ألا تراه مهموما ؟
- كأنه يحمل آلام الناس .
- خيل إليه أن الناس سيتغيرون .
- كان يأمل أن يعود للعامة وزنها .
- كيف وهم المنهوكون فى البحث عن لقمة ! .
- ما سمعنا عن جائع واتاه الوقت ليتأمل حاله .
- كان يراها البداية .
- أتراه ندم فلبس الخرقة من جديد ؟
- كاد الناس ينسونه .
- أعاد يلبس الخرقة اتقاء لغضب السيد .
- محتمل .

- ما أسرع ما ننسى !
- إن الأمر يذكرنى بحكاية طريفة ..
- إنى مصغ .
- حكاية بطلها ثعلب مكار .
- لا أراك تبغى التشبيه .
- انتظر .
- شوقتنى فأسرع.
- كان الثعلب مهموما .. يكثر من التلفت .
- أكان خائفا ؟
- قابله صديق قديم له فهمه ما رأى فى صحابه .
- طبيعة الحيوان .
- سأله عن سر همه . وكثرة تلفته .

***

(تلفت الثعلب يمينا وشمالا ، جرى ودار حول المكان ..
- اعذرنى ، فإنى أشك أن العيون مبثوثة فى كل مكان .
هال صاحبه أمره ، فأخذه من يده ومضيا متسحبين وراء الأكمة .
- أراك ترتجف .. أأنت جائع ؟
هز الثعلب رأسه ، فطمأنه الصديق .
- لا تخجل فإنى أدخر بعضا من دجاجة صدتها أمس
- ليس ما بى من الجوع .
- فمم يا صاحبى ؟

- لقد سمعت أمرا جللا ..

- قل .. ماذا سمعت .

جرى الثعلب ، وتشمم المكان .. وتعسسه .

- نحن فى مخبأ لا يطولنا فيه أحد .

- وهل عينه تغيب ؟ .

- عم تكلم ؟

مد أنفه ، وعاود التشمم .

- السلطان .

- لسنا فى غابة .. فمن أين يأتى السلطان ؟

- إنه سلطان البلاد .. وليس سلطان الغابة .

ضحك صاحبه .. وهز ذيله .. بانت نواجذه قاطعة .. على حين انبطح الثعلب على الأرض ، ومد يديه وأرخى رأسه مهموما .

- إن وراءك سراً فبح لى به .

- هو كذلك .

- فيم تنتظر ؟

- أمطمئن أنت ؟

- كل الاطمئنان .

- سمعت يا صديقى .

وعاود التلفت ، وأتاه حذره ، فجلس على مؤخرته وأطبق فمه .

- إن ما بك يوحى بسر مهول ..

- وهذا ما يرعبنى .

- قل فقد شوقتنى .

- أمتأكد ألا أحد يرانا .

- لقد نفد صبرى .

- سمعت أن السلطان يستولى على الحمير .

ضحك صاحبه واهتاج .. وظل يخدش وجه الأرض بكفه .

- ومالنا والحمير .. ثم يا أخى .

واقترب منه .. ولاصقه .. هز ذيله ولامسه .

- ما لنا نحن والسلطان ! .

- هى المشكلة .

- هل تتصور نفسك حمارا ؟

- أترانى حمارا ؟

- إذن ففيم خوفك ؟

- إنى أخاف من سكان البلاد .

- الناس ! .

- نعم ..

- يا صديقى .. إن كنت جائعا فقل ولا تخجل ..

- يا صاحبى لا تسخر .. فالناس ما عادوا يفرقون بين الحمار والثعلب .

- وهذا ما تخشاه .

- إنه يميتنى .

- اطمئن فالفارق بيننا لا تخطئه العين

- أتعيش فى هذا المكان .. أيها الصديق ؟

- إنى جديد عليه .. لقد افترقنا من زمن .

- إذن فأنت لا تعرفهم ..

- إنك تميت نفسك بنفسك .

- إنهم حين يضعون البردَعة لا يعرفون الحمار من الثعلب .

- إذن نلبس ثوب الإنسان .

رفع الثعلب رأسه ، زحفت عليه يقظة مفاجئة ..

- فاتنى ذلك .. لكن ..

- لا تيأس .. فإنى الليلة أعد هجوما على دار بالأطراف وليكن حصادنا الليلة .. الثوب بدلا من الدجاج .

- أتراه متاحا .

- إنى أراه كذلك .

- ألا ينكشف أمرنا ؟

- كيف ونحن نلبس ثيابهم ؟

ربت على كتفه حين رآه لا يزال مهموما .

- لعلك لا زلت تصدق أن كل من لبس الثوب إنسانا .

تسحبا فى حذر ، وبرز الأنفان يتشممان .. ومضيا يزمعان البحث .

***

ضحك الرجل من صاحبه وقال :

- كل شيء فى هذا الزمان متوقع .

- إلا أن يرتدى الثعلب ثوب الإنسان .

٢٤

تدلت المسبحة من عنقه وتأرجحت . أحكم الخطو ومشى وئيدا .. كانت شعاعات الشمس الغاربة تحزنه وتهمه . كان قبل اللحظة ينتظر الليل ويعشق السهر ويتعجل الغروب ، فالكأس الثملى تعلو بالحباب ، والأذكار بحر من العوم، كل يسبح حسب قدرته ، وقامته . كان الشعاع الأخير حين يودع المكان ليستقبل مكانا آخر ، يجعله يتبدل ، ويعتريه فرح مبهم يغمره ، ويخشى عليه أن يفيض . لكنه وهو يخترق الفناء الواسع والأسمال تهرأت أو كادت ، كانت نفسه تغص بالهم . لازمه الهم وزاحمه ، منذ أن عشق .. فالنهر أوقفه بين الحب والشرك .

لحظهم بركن عينه يتحلقون .. اقترب ووقف على رءوسهم ، لمحوه، فنهضوا وأوسعوا له مكانا . قال أحدهم معتذرا :

- لا تؤاخذنا يا شيخ ، فإننا نتسلى .

رمقه آخر ، نادته عيناه أن يغفر فليس فى اللهو ذنب .

- هل تتكرم وتجلس معنا .

اعترض واحد من الجمع وقال :

- كيف يضيع وقتا فى الأمور التافهة ؟

قعد القرفصاء ، فبانت خروق الخرقة ، ولاحت قطع اللحم فى فخذه وساقه ، واكتنزت بالدم عروق القدم ، وتماست حبات المسبحة بتراب الأرض .. صادت عينه عيونهم تتلصص عليه .. فابتسم وقال :

- من قال أن السيجة مضيعة للوقت ؟

زغد واحد من الجمع المتحلق آخر وقال باهتمام .

- ألم أقل لك ؟

قبض على حبات المسبحة ، أزال عنها التراب ، رأى الأقدام الحافية والأصابع النافرة والجلد المتشقق ، تنهد فى عمق وأسرع يقول :

- السيجة رياضة للذهن .

بحلق فيه واحد منهم واستمر يلعب . استفسر اللاعب وهو لا يزال يلعب ، ويداه تنقلان الأحجار من حفرة لحفرة ..

- السيجة تنشيط للذهن يا مولانا ؟

خبط بيده على ظهره فارتخت المسبحة .. وقال :

- إنك تضع الخطة ، وتحرك الأحجار وتهاجم .. وتدافع وتختار .. ثم تنتصر .

علا صوت رفيع يحمل شماته ..

- أو ينهزم .. إنه لم يكسب دورا واحدا .

أنهى اللاعب الدور ، ونكس رأسه مبتسما ..

- الحظ يهجرنى اليوم .

عرض واحد عليه اللعب .. فوافق ، كوم المسبحة . أعطاه لاعب أحجارا حمراء فنحاها جانبا . بدت عليه الحدة وهو يزيح ذراعه .. قال :

- الأحجار السوداء .

- إن الأحمر يغلب .

- ليس دوما .

- إن الحظ اليوم له .

ربت على كتف اللاعب ، أضاءت وجهه بسمة . خيل إليهم وهم يرونه مبتسما أنهم يقدرون على فصل ابتسامته .. فقد كانت كالموج تتحرك دوائر، دوائر .. حتى لتظن العين من ولَه .. أن نبعا من الماء يترقرق فى الوجه . همس واحد لنفسه ، حرص أن يقرب فمه من فتحة الجلباب ، فقد كان «عبه» واسعا .. همس وعيناه تتدحرجان عليه .. كيف لوجه له هذا البهاء يشاركنا لهونا ؟ .. انحنى وكاد يدخل فى جلبابه وهو يتلفت إليه .. خشى أن يكون قد سمع .. سحبه من فخذه وقال :

- أرأيت طينا أحمر ينتج خضرة ؟

- لكنه فى المناورة ينجح .

قطع الأمر وقال فى حسم :

- الأسود ابن الأرض ، فهاته وتوكل .

استعاذ من الشيطان وسمى ، وبدا يضع أحجاره . رمقهم وهم يتابعون وضع الأحجار ، أصابعه طويلة ، والحجر بينها نتفة . كان اللاعب ضده حاذقا وماهرا ، ومعروفا بقدرته وغلبته .. حادثهم وهو يضع الأحجار وينقلها :

- انظروا .. إنكم لو وضعتم الحجر الأسود فى هذه الحفرة ، ثم تركتم حفرة ثانية . وقفزتم حفرتين ووضعتم حجرا .. على اليمين وآخر على اليسار بعد ثلاث حفر .. ثم انتهزتم الفرصة ، وثبتوا أحجاركم فى الأركان.. حتى تبدو كالقلاع لكسبتم الدور .

- وباقى الأحجار .

ضحك فى قوة .. فارتج على اللاعب الضد .

- ادخروها للدفاع .

قهقه الجمع .. خرجت القهقهة لامعة صافية ، لها رنين المعدن . حدث نفسه بأنه لو لم تكن من نتيجة سوى القهقهة لكفى .. فمن يضحك فى هذا الزمان ؟؟ خبط الأسود وهو يضعه فى حفرته فكادت سدود الحفر حولها تتلاشى . نظر إلى عين النار .. الحفرة التى تتوسط حفر السيجة .. وجدها ملتهبة .. ووجه السيد يلوح بين هبّاتها .. فكز أسنانه ، ونقل الأسود وشال الأحمر . ضج الجمع ، واهتز اللاعب الحاذق . حرك حجرا أسود من أحجار الدفاع فسد طريق الأحمر .. وقف اللاعب مندهشا .. هوى بالأسود فى حفرة الوسط فسقط الأحمر .. ذهل اللاعب الحاذق .. وذهل الجمع .. واجه منافسه وقال :

- ألا ترى الأسود جميلا ؟! .

صفق الجمع وقالوا :

- ما كنا نتصور أنك تجيد اللعبة .

حطت عليه وداعة غمرت قلبه ..

- إنكم إذا أحببتم الأسود ، أحببتم الأرض السوداء .. إنه ابنها ..

قال واحد من الجمع ..

- ومن قال أننا لا نحب الأرض ؟

رد آخر لا مباليا ..

- إنما هى لعبة .. وتأتى الأحجار كيفما اتفق .

شد جزعه ، أخرج مسبحته ، لاحت فى عينه العيون محدقة ..

- لا يكفى الحب .. بل لابد من الدفاع .. أرأيتم كيف أحببت حـجرى الأسود ودافعت عنه .

همس واحد لآخر بجانبه .

- ماذا يقصد ؟

- لا أعرف .

نهض .. اختفت البسمة ، وتغير الوجه .. بدا عليه الموج هادرا .

- لن تلد الأرض خيرا إن تركتم الجارية حبيسة لدى الوالى .

- الجارية !

- أليست هى الأرض ؟

- والله إنها لكذلك .

- أم أنكم نسيتم !

- وكيف ننسى عطاءها يوم الهول .

دار برأسه ، تلفت ، مسحهم جميعا بعينه ، ثم واجههم وبريق من العين يطل .

- عطاؤها دائم ومتصل .. ألا تستحق الدفاع من سجنت بكم ! .

أم أنكم لا تجيدون الحركة إلا فى لعب السيجة !

تقاطرت فى عيونهم الدهشة فتركهم ومضى .. شد الجمع وهم يشيعونه .. تعلقت أبصارهم به حتى غاب . حك اللاعب الحاذق ذقنه وقال :

- ما أظن الشيخ على خطأ .

تواجهوا ، فـأغضوا العين ، وزموا الشفـاه . جلسوا يمارسون اللعب من جديد . كان بريق العين لا يزال لاصقا بالخيال .. تلاصقوا .. لكن هَمًّا خفيا

بدا يطفو على الوجوه ويضغط على القلوب . تراخت الأذرع وهى ترمى بالأحجار ، تصارعوا على الأسود وبقى الأحمر منزويا .. خشى كل ذراع أن يمتد إليه .. فبدا منزويا ومرتجفا .. نظر اللاعب الحاذق إليهم وقال :

- ماذا جرى يا قوم ؟

رد آخر وزمة واضحة ترتسم على الجبين ..

- والله لا ندرى ماذا حدث ؟

- كأنما يسحب بهجتنا الباقية !

- أينقصنا هم جديد ؟

قال اللاعب الحاذق متهكما :

- لم أر يدا تمتد للأحمر .

- حتى السلوى .. فقدت بهجتها ..

همس واحد لنفسه وهو يرمق وجوههم وحيرتهم وهمهم .

- لقد ألقى الحجر الأسود فى البركة ومضى ..

بعثروا الأحجار .. وهدموا السيجة .. ونهضوا متثاقلين . تواجهوا فانصب عليهم الخجل مرة واحدة ! .. كسحابة مترعة بالقطر .. فاجأهم واحد بقوله :

أيقصد الجارية فى القصر ؟ .

نطقوا جميعا فى صوت واحد .

- ومن غيرها ؟

- وما الحل ؟

بدت العبارة لغزا يستعصى على الحل . مصمصوا شفاههم .. واحتواهم

صمت ثقيل ، قال اللاعب الحاذق :

- هو يريد أن يحمى الأرض .. فيزداد طينها سوادا ويزداد سوادها خضرة .

كانت العبارة مخرجا لهم من قلق شلهم .. فلاح الارتياح رغم أن حذرا متوترا لا زال عالقا . أضحت الشمس الغاربة فى عيونهم كعروس مخنوقة، فار على وجهها دم متخثّر .

- كأن الشمس .. جارية القصر .

وتسربوا واحدا وراء واحد .. وكان بريق العين لا يزال لاصقا بخيالهم فى وضوح .

٢٥

لمحه الرجلان المستتران قادما .. فتوقعا أمرا جللا ..

- الغضب يسبقه .

- لكنه تأخر كثيرا .

- بل أراه جاء فى وقته .

جاءت قطة ، فالتصقا خائفين .

- أتخاف من القطة ؟

- بل أخاف أن يكتشفونا .

- أتوافق على تلصصنا ؟

- أتحب أن يفوتك الأمر ؟

- لا .. فنحن نحبها .

- وهى أيضا .

- لقد وقفت معنا حين غضب علينا .

- وناصرتنا على الحاشية .

- قل لى ألم يلحظوا غيابها ؟

- من غاب عن القلب ، غاب فى البصر .

- لشد ما يوجعنى أنينها .

- هى الصمود بعينه .

- تخيلته أمس .. ثورا جامحا .

- خيل إليّ أن جلدى هو الذى يتهرأ من لسعات الكرباج .

- أضاعها بجنونه .

- إلى متى نتلصص ؟ .

- لا ترفع صوتك .. أترى شيئا آخر ؟

- بودى أن أذيع الخبر .

- أترى فائدة ؟

- قد يتحركون .

- لا تتوقع الخير فى القصر .

- فلعل الخبر ينتشر فى الخارج .

- وهل فى يدهم شيء ؟

- وكيف يسكتون ؟

- الأمر فوق الطاقة .

- إنها محاولة .

- وفيها قتلنا .

- أليس مقتولا من يرى حبيبه يقتل ؟

- هيا بنا .. ولْـنكن حذرين .

- لنبدأ بالخدم .

وغرقا فى الظلام ، وبدوا نقطتين باهتين ، وهما يتسحبان إلى الداخل .

٢٦

طرق الباب . كوم قبضته ودق الباب . أحكم شاله حول كـتفـه وانتظر . لملم ثوبه ، وأخـرج من جـيبـه المسـبحـة ومسح المكان بعينه . جاءته صوصوات العصافير فصفع الباب بحدة . صر الخشب وانفتح فتواجها ، التصق الحاجب بالجدار فاغرا . تداعكت يداه فى ارتعاش . نقل بصره بينهم جميعا ، وانزوى فى ركن بعيد أرهف أذنيه حتى لا يفوته شيء .

حين رأته انبسط الوجه وانفـردت أساريره . حدثت نـفسهـا بأن القلب وراء مجيئه . غمرهـا الفرح وكاد البوح يطفـر . لمحت شاله ، وثوبه .. فلم يفتها رونقه . واتاها القلب . فتتابعت ضرباته .. حبكت غلالتها وانتظرت . حين وقعت عيناه عليه هاج ، تسلل الغـضب وعلا ، تجهم الوجه وتغضن ، مشى إلى الحاجب ولطمه .

- كيف جاء ؟

اختزن الحاجب ألمه وهمهم ..

- مولاى .. إننى ألازمك .

- لماذا فتحت له ؟

- ومن أدرانى أنه هو ؟

اقترب من السيد وقال متهكما :

- أترى أنه يستعصى عليّ ؟

استدار السيد وأمر الحاجب .

- لابد أن تجلدوا الحارس .

ضحك حين بدا له السيد مهتاجا .

- لم أدخل من بوابة القصر ..

- إذن كيف جئت ؟

لزم الصمت ، وفرد شاله ولم يجب

- كيف وصلت هنا ؟

- إذا سئلنا أظهرنا الجهل .

- ولكننى السيد ، وكل شيء بأمرى .

- لكن أمرنا ليس منك .

- ممن إذن ؟

اقترب من الحاجب ، وكانت عيناه .. تقدحان بالشرر .

- هى مؤامرة .

دار فى المكان جامحا ، مشى إلى الحاجب ، ثم مضى إلى الباب ، رمقه وهو يقترب من الجارية . توقف عن الحركة فجأة ، نقل بصره بينهما وقال :

- أهناك سيد آخر .

نقدم إلى الجارية ، ومسبحته تتأرجح على صدره . مسك يدها وقال :

- هى عوضنا عنكم .

- عوضكم ! أتسخر ؟

- لا .. ففيها يكمن الأمل .

- أى أمل ؟

- الصلاح .

- الصلاح فى أى شيء ؟

- فى كل شيء .

- ما أراكم إلا طامعين .

وقف أمامها مصلوبا وجامدا .. أهاجه بسمة ترفرف على وجهها فيضيء ، وانفراجة شفتين جافتين تشيان بالبوح ، وعينان لامعتان تومضان بالنشوة .. سكب بصره على الصدر فهاله التكوين مزموما بالغلالة .. ضرب فخذه بشدة وصاح .

- أتريدونها لكم ؟

- أفقدتموها الخصوبة .. عندما درتم حول أنفسكم ..

زام ورفع السوط عاليا ترك يد الجارية ، رفع رأسه ، شد جذعه ، رمى بذراعه فى الهواء .. أغمض الحاجب عينيه .. لاح فى العين طودا شامخا ، أحس بألم ينخر الذراع ووجع كقطع المنشار يهشم عظامه . تراخت اليد ، وتدلى السوط ، لامس طرفه الأرض واستكان .

- تريدون العطاء !

- ومن لا يريده ؟

- وما نوع العطاء ؟

- الوجود .. والحياة .

- هى الوجود !

- نعم .

- والحياة !

- نعم .. لمن يدرك .

ضحك عاليا ، واستغرقه الضحك . قوس ظهره ومال إلى الأرض وهو يضحك . تلفت برأسه نحوها وكاد يقعى أمامها ولا زال يضحك .. اهتز جسده كله .. وارتعش .. وزم شفتيه ، وكز أسنانه .. وضاع منه الضحك . عاوده الغضب فصرخ فى عنف . تحسس الحاجب طريقه بحذر ولاصقه . أرعبه أن رأى شدقيه مفتوحين والزبد يسيل منهما .. تأكد أن اللوثة آتية ، وأن الزمام سيفلت .. وأن غيبة العقل قادمة . همس إليه ، والتودد على الملامح يرتعش ..

- مولاى تماسك .. ولا تهتم .

ظلت عينا السيد مفتوحتين ، والبؤبؤ متصلبا لا يتحرك . كان الهلع يتمدد على الوجه ، ويأكل العين ويخرج مع الأنفاس .. أخذته رجفه لازمته أيامه الأخيرة . نقل الحاجب بصره بينهم .. كان الوجه الأشهب .. يحتضن بفتون وجه الجارية ، ويتحسسها منعطفا منعطفا . توجه إليه وتوسل .

- رفقا بالسيد .. فكفاه طعنا .

- لقد طعن نفسه حين حبسها .

مسك يدها .. ففار الدم .. ورقص القلب .

- ألم يكفه أن جعلها عودا جافا ممصوصا وكانت الرى والظل ؟. اقترب الحاجب منها . سبق عينه التذلل .. انطباق الجفن حيرة ، وتقلصات الأصابع قلق ، الجبهة العابسة خوف .ذكرها أنه حماها ، حين سترها

بعدعرى ، وأنه أخذها فى حضنه ، وألقى عليها الغلالة ، وغطاها من نهش العيون .. ذكرها أنه السيد ، وأن القصر قصرها .. وأن الأنس معقود لها .. والأمر لا يعدو محنة ، ستزول حتما . اقترب حتى كاد يهمس :

- قولى له أن يكف عن إذلال السيد .

التصقت بالحائط ونظرت إليه فى حياء .

- من أنا يرحمك الله ؟ ..

- من أنت ؟ أتقولين من أنت ؟

- نعم من أنا ؟

احتار وبدت الحجرة فى عينه ضاغطة وضيقة ، هرول بينهم .. ثم لبد أمامها .

- أنت من يجرى على يديك الخير .. فقولى له أن يكف .

اتجهت إلى الفتحة الضيقة ، وصوبت بصرها بلا تحديد .. كانت حواف الأشجار تتماس مع الأفق ، وكانت الغيمة تنعقد فى عينيها ، وسرعان ما أفرغت .. دمعا غزيرا .. ومبهجا .

- سترك الله أيها الحاجب .. وكشف عنك الغمة .

أرسلت عينيها المخضلتين عبر الفتحة .. وتناجت .

- اللهم اجبر كسرى . وأقلنى من عثرتى ، وأعنا على الطريق .

تركها ، ومضى إلى مولاه .. رأى الذراع ممتدا فى الفراغ ، والسوط معلقا به ، والجسد متصلبا جامدا ، واللسان ممتدا فى تجويف الفم ومدلى على الشفة السفلى . ضغطت الأسنان عليه فأدمته .. رشح من الفم دم .. بكى الحاجب واحتضنه ، حرك السيد شفتيه غصبا ، خرجت الألفاظ

مخلوطة بالدم .

- من يكلمنى بلسان الملوك ؟

سكب نظره عليه ، ولم يقوعلى وأد شعور طارئ بالرأفة ، لكنه أسرع فى حلة .

- إنه العبد من يكلمك .

ضعف فبكى ، أخذته نوبة نشيج .. همهم وهو يبكى .

- أنت دوما .. ويل للعبيد منى ..

سقط السوط وظل الذراع مرفوعا .

- أخطأت حين تركتك . تصورتك لعبة يتلهى بها الناس فإذا بك شيطان .

- الشيطان أنت .. لقد آن الأوان .

- سأجز رقابكم . أيها الحاجب . سأفصل رقابكم عن أجسامكم .. أيها الحاجب .. ناد السياف .. أخبره .. أن الليلة ستملأ الكئوس دما .. أيها الحاجب بلغ السقاة أن يعيدوا الخمر إلى الدنان . فمشروب الليلة رائع .. أيها الـ ..حا .. جب ..

وتثنى جذعه وانحط من طوله .. سقط ، وكانت سقطته تحت أقدام الجارية.

٢٧

مال عليه الحاجب وقلبه موجع . أحس أن النهاية وشيكة، وأن النزع الأخير فى كل شيء يوجب الرحمة . رمقها فوجدها تبكى . رأى دمعها غريبا وهو من تذلل

لها أن ترحمه . رآها تنحنى عليه فانبهم الأمر ولم يفهم . فاض من عينها دفء ظل مكتوما كرحيق الزهرة .. فاح وانتشر وتسلل .. ومشى . كادوا يحسونه صهدا يسرى مع الدم ، ويزاحم الأنفاس . وانهمر على المكان الفرح .. وجاس الضوء ، مسحت بغلالتها دمه ، ولسانه ، وشدقه .. أعادت اللسان فى الفم ، وأطبقت الشفتين .. لم يصدق الحاجب ما رأى فشرع مندفعا يقول :

- لا تتركيه . إنه يحتاج إليك .

احتضنته ، أراحت رأسه على صدرها وهدهدته . وظل هو واقفا يرمقها . كان يبتسم لها ، وضوء يتلألأ فى جبينها . أدارت رأسها له وقالت :

- عجبت لمن هذا صنعه .. كيف يشتكى وعلام يبكى ؟

ازدادت بسمته واتسعت ، سلد بصره فى قوة .. الوجه وجه قمر .. اطمأن . زايله القلق حين انحنت ، وجاءه الأمان حين قالت ، وزغرد قلبه حين سمت وارتفعت ، أدرك أن فى السمو العفة ، وفى العلو الرحمة .. قال وهو لا يقوى على كتم فرحه .

- إنما يُمتحن ذو البأس عندالشدة .

اقترب منه الحاجب وقال :

- لقد قسوت عليه .

وضع يده على كتفه وقال .

- لقد فقد محبّتها ففقد محبة الناس .

- ومن يستطيع اكتساب المحبة فى هذا الزمان ؟

- يا حاجب السيد .. تأتى المحبة للرجل حين تسكنه الحكمة

ويقوده العقل .

- اعترف .. أن صوابه طاش هذه الأيام .

رفعت رأسها، ولا يزال الأسى فى حضنها.. واجهت الحاجب فى ألم .

- لقد صنعتموه وعليكم الوزر .

ارتجف الحاجب ، وجف ريقه ، زاغ بصره واحتار ..

- ومن نحن حتى نصنع ؟ .

جذب الحاجب وظل ممسكا به .

- حين يتواضع الإنسان لمتكبر يذل نفسه فى غير محل .

- لم يكن إلا وادعا .

- كانت البداية .

- إنها المحنة فلا تعذبنا .

- لقد كبرت نفسه بغير حق .. وكبروا معه .. ثم هوى .. فتساقطوا معه ، تصوروها ربيعا دائما .. فباغتهم الخريف . إنها أيها الحاجب .. دورة الطبيعة .

نهضت ، والداخل فائر ومشحون . سكنت القلب الخميلة .. أورقت أغصانها لفيض النور ، تلونت أوراقها بالمحبة . خامرها شعور بأن القلب اتسع .. واتسع .. ووسع الناس جميعا .. داعبت يدها حبات المسبحة وقالت :

- العلم بالمراد يغنى عن المسألة .

تفرست فى الحاجب ، قرأت الباطن عاريا .

- يا حاجب السيد .. الائتناس بالناس نوع من الأنس .. دارت حول

نفسها وهامت ، لاحقاها مبهورين . اتجهت صوب الباب .. توقفت والعين تفيض بالدمع ، ثم أسرعت ، وجرت .. وظلت تجرى ، صاح فيها وهى تتوارى .

- عودى .. يا جارية .. يا .. يا ..

لكز الحاجب بشدة وهرول وراءها .. والصوت العميق يناديها .

- عودى .. عودى يا جارية .. إننا لم نصنع شيئا بعد عودى .. يا ..

أنهض الحاجب سيده ، ثم ولى مسرعا وراءهما .

٢٨

وتلوى خيط الغبار خلف الأقدام ، فانغلقت العيون . كان اللهاث سريعا والغبار يفرش الفراغ بالظلال والذرات .

ولا زالت عينه تتابعها .. كيف جاءتها القوة لترمح كالمهر الشقى ؟ .. غمرته البهجة حين وجدها قوية ، تعافر ، رغم ما أصابها ، لاحت فى عينه للتو وهى فى مرمى النظر بعيدة ، وغائمة .. شجرةً ضارية بجذورها فى الأرض ، مورقة الأغصان ، وارفة الظل ، تشكلت ، خميلة ، عريشة ، وخيمة ظل .. رفع رأسه إلى السماء مولّها .

(إلهى .. إن ألهتنى الغفلة ، فثقتى فيك كبيرة ، أنت الملاذ ، وإن هوت بنا العثرة) .

تضرع إلى السماء ، وكان الخشوع قطر ندى يبلل الصديان .

(إلهى .. هى نعمة منك .. ونحن بعض من النعمة . فاجعل الإرادة على قدر نعمتك) .

مشى بيده على وجهه ، دعك عينه ، الرمش مخضل . ونثار الغبار يسكن جفنه .

(يا من لا تمل حلاوة ذكره ألسنة الخائفين ، لا نخاف إلا منك ، ولا نطمع إلا فى رضاك . أسبلت المدامع الخاشعة ، فارزقنا حلاوة النهاية ، وللذة الأنس فأنت موضع الرجاء ، حين يسرف الظلم ، ويتمدد الخوف فى النفوس) .

رآه الناس حين رأوها ، فتوجسوا خيفة حين اخترقت المكان من وسطه عارية ، والريح تجذب الغلالة الخفيفة وتطيرها غاص قلبهم ، وطفر الخوف فى عيونهم ، وقفوا فى جمود ، حطت عليهم بلاهة ، وبلادة .

رموا ما بأيديهم فتناثرت الأقمشة ، والثياب ، واختلط الحبهان بالمستكة ، والصندل بالعود .. طاشت حبات المستكة ، وكفت المباخر عن الاحتراق .

وقف كبيرهم مندهشا وقال :

- أرأيتم ما رأيت ؟

رمى أحدهم بمبسم النرجيلة ، ومد رأسه يتابع ، عبرت وجهه دهشة هائلة .

- إنها الجارية.

مس تاجر جبينه وصرخ فى حدة

- إنه يتبعها .

زمجر كبيرهم

- لا أخاله يضايقها .

انفجر آخر كالبركان ، مد يده إلى فتحة ثوبه وشقه .

- لقد سكتنا عليه كثيرا .

ولول رجل يؤانس صاحب المحل ..

- لقد حشر نفسه فى كل شيء .

أزاحت امرأة خمارها وغمزت .

- لم يبق إلا أن يضايق الجارية .

أعادت خمارها وقالت فى غل .

- ألا نعجبه ؟ لم يبق إلا أصحاب الخرق .. زمن ! .

لكزها صبى المحل محتدا :

- أهذا وقته ؟

رأوا الحاجب يجرى فأوقفوه .

- ما الخبر ؟

- تركت القصر وهربت .

تحلقوه فتخلص منهم وجرى .. سابقه رجل وأوقفه ، شدد عليه الخناق فصرخ .

- لقد سجنها وضربها .

- من ؟

- السيد

رمى الصبى بطاقته على الأرض وخبط بقدمه

- أيعقل وهو من عاش بها ؟

احتد الحاجب فى نظرته .. وخلص نفسه ، ومضى مسرعا ، لمحوا من

بعيد سقاة القصر ، وبعض الخدم ، سخر الصبى وزمجر .

- لمن تملأون الكئوس فى غيبتها ؟ .

- أكان يجب أن يقسو ؟

- كانت المتعة والأمل .

صرخ أحدهم فى وجه التاجر الكبير .

- قلت لك يوما أنه سيبيعها .. بعد أن يمتصها وها أنت ترى ..

شرد التاجر ببصره وقال :

- الأمر يختلف .. علينا أن ندركها .

سخر الصبى . ودمدم فى نفسه .

- تدركونها .. أم تدركون أنفسكم ؟

زعق تاجر وهو يهرول من داخل المحل .

- ألا تحمونها .. وجودها حياة لكم .

عاود الصبى سخريته .. وقال بصوت عال :

- ليس قبل أن تعثروا عليها ..

تخطرت المرأة فى مشيتها ..حدثت نفسها :

-إنها لا تعدو أن تكون امرأة .

وأسرع الرجال ، واختنق المكان بالزحام .. انحشرت بينهم ، سيطر عليها فضول كبير فأسرعت تسابقهم . كانت الخطوات تسبق الأقدام .. وثمة خيط مغبر يتلوى من بعيد . حددوه وساروا على هديه .. وأطلت الأقمشة والثياب . لبدت الحبوب فى الأجولة .. وتدحرجت المباخر وأطلت

الأرفف تتطلع ، وتنتظر العودة.

٢٩

تطاير الخبر وذاع ، وانهمر الناس ، وتلاقت الأزقة على درب الطريق المغبر ، كانت الروافد كلها تصب فيه .. والمنبع لا يمتلئ .. والمجرى المحفور بطول الأرض يطلب المزيد ، ويبغى الفيض . حدث نفسه وهو يلوح بمسبحته حين رأى الحشد ينثال (آن للمنبع أن يمتلئ ويفيض) .

اختلط الرجال بالنساء وانحشرت الصبية ومدت رءوسها ، بصّت العيون من المشربيات العتيقة .. امتدت يد وكسرت المشربية .. وخرج صوت غاضب .

- الله على القوى .

شالت امرأة ولدها ، وضعته على كتفها ، ورمحت مع الرامحين .. أحاطته بيديها .. فالزحام يفقد التوازن ، من أين جاء الناس ؟ وأين كانوا ؟ حادثت ولدها وقالت :

- ارفع رأسك فقد تراها .
- من هى يا أمى ؟
- الجارية
- لا أعرفها . أكانت تزورنا ؟

ضحكت الأم وأحاطته بشوق .

- إنها من تعطينا .. لولاها لهلكتَ يوم أن كنا لا نجد اللقمة .
- هى التى تعطينا الخبز ؟

- ومن غيرها ؟

- واللبن ؟

- وكل شيء .

- لكنها ما أطعمتنا اللحم .

قرصته فى حنو وانحشرت وسط الجمع ، لمحت مكاريا يشق الزحام .. العربة ، والعصا والحمار ، تطلعت إليه ، فأشار لها ، قفزت وجلست .

- ساقك القدر إلى الزحام .

- بل جئت طائعا .. ولولا الزحام لكنت فى المقدمة .

ارتفع صوت فتاة حارا ودافئا .. كانت تتغنى ، فانضمت إليها فتيات أخريات .

رددن الكلمات فى إيقاع منغم .. أخذ بعض الصبية يغنون ونغمة مقابلة .. شعر المكارى بلفحة انفعال تكتسحه ، فهوى بعصاه على حماره .. نهق الحمار . وطرطرأ أذنيه .. ضحكت المرأة ..

- حمارك يغنى .

- لابد أنه مبسوط .

ناوشته المرأة وولدها يتأرجح فى حجرها .

- لن تأخذ منى الأجرة ! !

- الأجرة أن نلحق بها .

تمتمت فى حزن ، وكأنما أحست بوحشة الفقد ..

- أيمكن أن تعود ؟

وموكب الزحام يصخب ويضحك ، رغم أن خوفا فى القلوب قد حط،

وهمًا يدغدغ النفوس ويجرشها .. الرءوس مشرعة والأعناق ممطوطة ، والأكتاف ملتصقة ، والأذرعة تعافر ، والعيون معقودة عليها .. وقلق يرشح في الصدور .. والأنفاس مكتومة ، والتعلق بأمل اللحاق بها يناوش القلوب . وانطلقت زغرودة مدوية .. فانشق الزحام وتلألأت العيون ، انزاح بعض الهم ، وتتابعت الزغاريد وامتلأ الهواء بالنغم . لكنك إن دققت النظر لمست سحابة من الحزن تحاول أن تمتص الفرح وتذيب النغم .. اختلط الفرح بالحزن . والدمدمة بالصراخ .. فالموقف لا يحتمل ، والأمر يستعصى على العقول . مرق فى السماء وهج وضاء ، فتعالت الصيحات ، خرج صوت ناشف يعلو على الأصوات ..

- إنه النور الذى يحرسها فلا تخافوا .

تواثب الغلمان وانحشروا . تضايق المكارى ورفع عصاه . لم يبد من حماره سوى أذنيه .. طوق خصر المرأة ليحميها من السقوط .

- أكل هذا الجمع نال خيرها ؟

أسندت ولدها ، ودفعته فى حجرها ، وهللت .. نظر إليها فأدرك أنها أخرجت قلبها وعزفت عليه

- من نالوا خيرها تركوها !

شد ذراعها وقال :

- انظرى .. كأن القبور أخرجت سكانها ..

- قهقه فى سخرية .. وغاظه أن حماره اختفى بين الناس .

- أكل هؤلاء يعيشون بالبلد ؟

نظر إلى حماره .. ومسك عصاه ولوح بها فى الفضاء .

- كيف لها أن ترى المشهد ؟

طلبت منه أن يكف .. فلا وقت للتهكم .

- خير لك أن تنقذ الحمار .

وضحكت ، وهللت من جديد .. وكانت الفتيات والصبية لا يزالون يوالون الغناء .. همس لنفسه فى حيرة ..

- رغم أننا فى ضنك ، إلا أننا نرمح وراءها .

زام .. فعلا صوته .. حمل حين نطق مسحة أسى وخوف ، فنفخ فى توجس .

- من يدرى فقد يأتى سيد آخر .. ونظل كما نحن على الضنك .

وخيم الظلام ، وخيم الصمت ، ومرق فى السماء وهج وضّاء ، فعادت الصيحات تتعالى .

- إنها تنادينا ..

بدت فى عيونهم من بعيد ، حورية تجرى ويقطر منها الماء كالنور ، وشعرها الأسود المبلول .. يبدو بلون الحنطة . ونهداها البارزان كنهرين من اللبن المخزون ينتظران العصر .. وارتفع صوت من المئذنة يقول : «والعصر إن الإنسان فى خسر»

٣٠

غامت عيناه ، وأجهده العدْو ، خامره شك فى الصوت الذى يعلو يسرد صفاته ، ويعدد كراماته . تأذى وحدث نفسه بألا كرامة من إنسانة وغيره مهان .

٣١

اعـتلى الرجل نتـوءاً وظل يحكى ، كـان شعـره أشـعث مغبرا، واللحـية مهوشة وعيناه زائغـتين ، لوح بيده ، فرد أصابعه ، وقبضها ، ظل يفردها ويقبضها ..

وكان الفراغ من بين أصابعه المفتوحة يذوب .. وهبط المساء رويدا رويدا . غبش المكان ، وتعذرت الرؤية انتفضت المسـارج والشموع واخترق النور الغبـار الكثيف ، وتميّعت الرؤية، ولم يعـد يرى الواحد منهم مـا كان يراه ، تجزأ الحشد جماعات .. جماعات ..

وبقى حبل المسير موصولا .. تزداد الروافد على شطيه وتتزاحم . كالنيل والفروع والتـرع .. أخرج الرجل عـصاه من بين تلافـيف أسمـاله المتسـخة والمتراكمة طبقة فوق طبقة ، دلق عليـها «الجاز» من زجاجة منبعجة سوداء ، وأشعلهـا ، دار بها فى الفراغ ، ولوّح ، تصـاعد الدخان عاليا ، دارت عيناه فى محجريهما ، وطلّ منهما بريق مخيف ..

- لا تخشوا عليها فهو معها .

يميل الجزع ، وتميل الرأس ، يرمقونه ويمضون .

- إنى أعلم به منكم .

توقف البعض .. وجذبهم الفضول ..

- تعالوا أحدثكم عنه ، إنه واحد منا .

وجد أمامه جمعا مختلطا ، رجالا ونساء ، وصبية ، وفتيات .

- مالكم تخافون ؟

شد رجل جسمه المحشور ونطق .

- وعلام نخاف .. إن لم نخف عليها ؟

حـرك عصـاه فازداد الـوهج.. وتشتت الدخـان . ضـحك بصوت عـال وغرق فى ذهول ثم نطق فجأة .

- اطمـئنوا .. ألا تعلمـون أننا زرعنا فى كل ركن من الأركـان الأربعـة واحدا منا .

همس واحد لآخر يلاصقه .

- إنه يتحدث عن الموتى .

رد عليه آخر فى تهكم وازدراء .

- إن كان كما يقول .. فإن فى كل زاوية واحدا منهم .

لوح لهم بالعصا المشتعلة .

- إنهم يحرسونها فلا تخشوا .

زعق واحد منهم فى وجهه وانسحب ماضيا .

- كيف تحكّم فينا الموتى ؟

انفعل الرجل بشدة ، استهول الأمر فشد شعره ، وكاد يمزق خرقه .

- بل هم خير من الأحياء .

أشار إلى الرجل المنسحب ، وهو يغوص فى الجمع .

- ماذا فعلتم أنتم يا عجول .

رفع رأسه ، كأنما يناطح الدخـان المتصاعد ، فرد ذراعـه ورماه فى وجوه الواقفين .. وأشار إلى بعيد .. حيث خط الغبار ، ونقطة البداية .

- ألم تروه هناك يتبعها ؟

- وجدناهما يجريان فقلنا فى الأمر شيء .

- هل كنتم تعلمون عنه شيئا ؟

- لا ..

- نعم ..

أحنى رأسه وقال فى تمهل :

- لقد أرسلوه ليحميها .. الأحياء الموتى أرسلوه فاتبعوه ..

حمل عصاه المشتعلة على كتفه ، بحث عن ظله فلم يجده ، فاهتز . لاح الأفق فى عينه راكزا بأطرافه ، فضحك . سكب الجاز على العصا فازدادت اشتعالا . جذب رجلا قريبا منه ، خلعه خلعا ، وكاد الكتف ينخلع ، أوقفه بجانبه . كانت مساحة النتوء ضيقة ، ارتكز الرجل على ساق ، وظلت الأخرى معلقة .. همزه بشدة ، وأحاطه بذراعه الأخرى .. وقفت الأنفاس، ولم يعد شيءيتحرك . رفع عصاه ، فألقت ظلال الأجسام على الأجسام .. التفت إلى الرجل وقال :

- انظر

أشار إلى السماء ، وظل الواقف بجانبه حائرا .

- ألا ترى الوهج هناك ؟

تلفت الرجل يمينا وشمالا .. تقلصت عضلة الساق .. وبقيت ساقه تتأرجح فى الفراغ .

- ألا تراه دافئا ونيرا .

ارتعش الرجل وخاف ، تمتم وحدّث نفسه بأن أصحاب الحال مجانين لكنه استكتم تمتمته وقال :

- إنى أراه .

تلفت الجمع حواليهم .. وصمتوا . كان الصمت ثقيلا رغم الضجيج والصخب .

- أتركنى فقد رأيته .

- إنه يتجه نحوه .

- إنه يتجه نحوه .. اتركنى ..

انتصب جذعه وشدد من ضغطه على الرجل ..

- إنه يصب دفئه عليه .

سقطت صرخة الرجل على الرءوس، وواصلت سقطتها حتى الأقدام .

- إنه يصب دفئه عليه .. اتركنى .

تركه فهرول الرجل وانحشر بينهم .. وجه حديثه إليهم .. بدا فجأة ذاهلا وحنونا .. مضى الآخر وسط الحشد يزمجر «إنه يصب دفئه عليه» .

- لقد خصه الله به .

رمقهم واحدا واحدا .. لاحت البسمات مرسومة غصبا فاحتد فيهم .

- لا تخدعونى بابتساماتكم .

رد عليه واحد من الجمع فى ضيق .

- قل ماذا تريد .. فقد عطلتنا كثيرا ؟

- أقول لكم .. اتبعوه يخلصكم .

- نحن نتبعه .

- نحن نتبعها .

- إننا الذين نحدد من نتبع .

- سخر واحد وقال

- فلنتبع أنفسنا .
أطفأ عصاه ، فظهرت من بعيد ارتعاشات ضوء خافته .
- إنكم تسيرون مع السائرين ..
- ألا يكفى ؟
صاح فى رجفة .
- حددوا مقصدكم تنجحون .
وتسحب الجمع .. ونزل إلى الأرض . وظل النتوء فارغا .. ثم .. انحشر فى الزحام .

٣٢

رفع رأسه ، ومط عنقه أزاح الحجر الذى يتوسده ، وارتفق كوعيه . وصلته ضجة الأصوات ، الغناء ، الصياح ، التهلل ، النداء ، الزغاريد .. الله أكبر .. الجارية ، الأذان .. ضيق عينه وصوب بصره إليهم . رأى الرجال ، النساء ، الصغار ، الصبية ، المهووس .. التاجر ، الغنى .. الفقير .. التابع ، المتبوع .. دعك عينيه ، ونفض عنه آثار النوم .. فلقد أيقظته الضجة وانتهى الأمر . جلس ، وانتحى مكانه المعهود على أعلى درجة من درجات الجامع الصغير.. ظنها للتو فرصة للتسول ، مد يديه . دعا للرامحين أمامه بطول البقاء .. وظل ينتظر . قبض كفيه .. خامره شك فى الأمر ، فالمشهد كيوم الحشر . (أترى القيامة قامت وأنا نائم؟) أراد أن ينهض لكنه ما لبث أن استلقى .. حاول أن ينام لكن الضجة أفاقته .. ظل مستلقيا يحدق فيهم .
عقدت الدهشة وجهه ، واستنكر الأمر .. (أمات السيد ؟ .. أو أن

الحرب قامت ؟ ..) دفس يده ، وأخرج سيجارة ، أشعلها ، ولهف نفسا عميقا .. (أحلت مجاعة ثانية بالبلد ؟ ..) ابتسم فى ازدراء .. وحمد الله عل وضعه (إنى آكِل .. طاعم .. حلت بالبلد مجاعة أو مشى فيها الخير) .. ناداه واحد من الحشد الصاخب . رمقه . رمقهم وظل على حاله .. عاوده الهاجس بأن الأمر خطير .. لكنه حين رمى بعقب السيجارة رنت فى أذنه أصوات مختلطة من البكاء والغناء .. فحدس أن الأمر كله جنون .. جاءه واحد وشد يده ، فاعترض .. لكنه حين استدار استوقفه .

- ما الحكاية ؟

- لقد هربت الجارية .

- أية جارية .. فالبلد تغص بهن ؟

- جارية القصر .

- أمتأكد ؟

- كما أراك .

- وما دخل الناس هؤلاء ؟

- إنهم يجرون وراءها .

- ليمسكوها .

- ليلحقوا بها .

- ويعيدونها إلى القصر .

-بل ليحموها منه .

- لماذا ؟

- كأنك لا تحيا .

- وهؤلاء سيحمونها !

- نعم ..

- كيف ؟

- لا أدرى

- وماذا تريد منى ؟

- أن تأتى معنا .

- لماذا ؟

- لا تحيرنى .

- أتحتاجون إليّ ؟

- لابد أن تشارك فى البحث عنها .

- ولكننى متسول .. فقير .. لا أجد قوت يومى .. أتضمن لى العشاء ؟

- لا وقت للمناكفة .

- لو جئت معكم .. أتضمنون لى أكلا وسكنا ..

- ماذا تتصور نفسك !

- إذن .. ارجع ، واصرخ مع الصارخين .

ورقد على ظهره وحدق فى السماء .. راعه أنها تصوب سهامها إليه وتمعن التحديق .. فأمعن التحديق ، وأصر عليه ، وتحسس وجهه المغضن ، وقدميه الحافيتين الخشنتين ، وثوبه البالى الخِلق .. ولحمه العارى .. وأذنه المثقوبة .. وعكازه المهشم .. وكسرة خبز ناشفة . رفع بصره .. فشاهد المئذنة .. وراءها نجوم السماء تتلألأ .. هادئة وادعة وكأنما لا تصلها الضجة، نزل ببصره .. باب الجامع .. المنبر .. الخطيب .. الجنة والنار .. الدعاء

للسيد أن يجرى على يديه الخير .. وينتصر على الكفرة ، ورأى .. ورأى ، فأدار للعالم كله ظهره .. وأخرج سيجارته وطفق يشعلها .

٣٣

أجدبت الأرض ، وتشققت ، رمحت الفئران فى الشقوق وحل القحط ، وكاد الناس يموتون . ارتفعت الصيحات ، الخبز ، الماء . وارتجت فى الأعالى السماء .. انطرح الناس فى كل طريق وزقاق .. تيبس القلب ، وزاغت الأبصار . هرب الأخ من أخيه ، أكلت القطة أولادها .. تدافعوا ، انكفئوا ، واختلطوا.. فيهم الحى ، ونصف الحى ، فيهم الميت ونصف الميت . نهشت المجاعة القلوب ، فعميت الأبصار . الخبز .. الماء . وظل السيد فى قصره لا يبرحه .. مدلّها ومترفا ..

وحين أمات الجوع الناس .

نزلت إليهم .. تركت السيد والقصر .. ونزلتْ إليهم .. ونزع هو خرقته، ترك مسبحته وداوى الجراح باللمسة .. لكن اللمسة لا تشبع ، والحنان لا يطفئ الظمأ . أدرك أنه إذا نطق بلفظ معوج قتلوه ، فالوقت ليس أوان التوبة .. توجهت إلى الله وقلت :

(أنتم عصيتم الله فى طاعة العبد ، يامن بيده أمر الدنيا والدين .. ارزق عبادك الضالين .. ولا تأخذهم بعصيانهم فليس الوقت وقت الحساب ..)

صرخ فى قوة ، كوم مسبحته ورماها فى جيبه .. ولاحت الأشجار محروقة .. نفقت الدواب .. وجف الضرع .. وسقط الناس .. والتمس العفو .

هذا الذى يجرى أمامكم يلتمس العفو (نلتمس العفو من الديوان .. الديوان جُود كله. نحن عشاقك الأطهار . اهتزت أغصاننا وجذورنا فى الوحل .. فهيئ لنا القربى .. واصنع على يدينا رضاك) واتجه مندفعا إلى القصر .

حطم الباب .. وفتحت له الأبواب . أكلتم وشربتم .. أطعمتْكم وكستكم .. ولكنكم فى غيكم سادرون .. ظن أنكم ستنتصفون لكم .. فخاب أمله .. تركها وترككم ، لبس الخرقة ، وانعزل عنكم .. وجاءها منزويا ومهموما .. نحن الذين نداوى القلوب .. وأنتم تجهلون قلبه . و.. و.. ونظر حوله ، وجد نفسه وحيدا ، وعصاه لا تزال تتأرجح ، غشيته نوبة، فشد شعره وصرخ .

- إنى أراكم نسيتم !

٣٤

علق مسبحته فى رقبته ، واستسلم . فرد شاله ، ونفضه تأرجحت على الصدر حبات المسبحة ، كثمرات النبق ، وقف ودعك عينه ، ومسح جبينه ، أخرج منديلا نظيفا نشف به العرق . أحس بنظرات الناس حوله تتلصص فأعاده إلى جيبه ، (أيستكثرون على منديلا نظيفا .. أكُتب علىّ أن ابتلى بالخرقة .. فمتى يدركون أننا لسنا معلّمين بها؟) داخلته الهمهمة فلم يلحظوا سوى تمتمة الشفاه . لكنهم وهم يتحوطونه لحظوه يقسر دمعة عن الانفلات ، فأحاطوا به .. خبط رجل كفيه وقال :

-كيف لولى يعجز عن اللحاق بها ؟

نطق واحد بسرعة

- ولماذا وقفتم ؟

- رأيناه وقف .. فوقفنا .

- أتتركونها إذن ؟

- مثلما تركها .

- كان يستطيع لو صرخ صرخته أن يلحق بها .

علا صوت مشروخ

- لقد قفز النهر وحماها .. أيعقل أن يعجز عن الوصول إليها ؟

- لقد تركها تهان .. ولم يفعل شيئا .

حدق فيهم وصمت ، كادت يد تمتد إليه .. تسابقت الأيدى .. صنعت حاجزا .. أعاد الرجل يده حزينا .. تمتم معتذرا ! .

- ماذا جرى ؟ السماح يا شيخ .

رفع الرجل عصاه ، بحث عن قارورة الجاز فلم يجدها ، فتل لحيته وقال متأنيا .

- ألم أقل إنكم نسيتم ؟

ولولت امرأة شعثاء الشعر .. رفعت جلبابها فظهر ساقاها العجفاوان .. دفعت بولدها بين وركيها .. وصاحت :

- ونحن من تصورناه يحمى الحريم ؟

همس واحد لآخر بجانبه :

- لقد أصابته الغمة .

- وهو قادر على دفعها .

- لقد دفع الكثير .

انحنى ، بحث عنها تحت الأقدام .. عثر على القارورة ، سكبها على عصاه .. وأشعل النيران .. تكشف المكان .. بحثوا عنه فلم يجدوه .. هاج فيهم وصرخ .

- يا قوم لا تلمزوا النفس وداووا جراحكم بأنفسكم ..

٣٥

ليس فى العشق مهانة . بل ليس من مهانة أقسى من مهانة العاشق . تساوى العاشق والمعشوق .. وأضحى العشق غصنا طريا ، وخميلة غناء ، وطائرا مغردا وبحرا ذاخرا . تظل العيون مفتوحة ، والآذان مرهفة ، والقلوب تبحث علها تنجذب .. وأصابتنى الحمى ، وتلون الكون فى عينى ، وارتدى الرداء .. واستتر الجسد العارى بنور الوجد فسكنته الطمأنينة ..

وانسكب النور فامتلأ النبع وفاض . ترشنى الضياء ، ويغسلنى الوهج . ويفور من داخلى نهر الحب ، والمنبع الذى غاض يمتلئ ، يترقرق سنا وسناء، يفور عارجا إلى السماء .. بل إنى أكاد ألمح السماء تنحنى عليه فى وداعة وحب .

ليس فى العشق مهانة ، ففى العشق الوجود ، وفيه تنتفض الحياة وينكشف المستور . والقلب حين يكتوى بالنور ينصهر ، يتألق معدنه ، ويبقى للعاشق العناء ، يسعى للاحتراق فمن لا يحترق قلبه على الإنسان؟.. كان قلبه معى عاشقا ومحترقا ، أشعله فى قلبى وأتت النار على قلبه . كتم الآلام ، عناء الفعل ، وما باح ..فاحتفظ فى داخله بسر البهجة

وتركنى أبحث . حطم الصنم .. فأماته فى قلبى .. وأزاح الأثقال والأغلال، ودفعنى على الطريق . فـزماننا يمتلئ بالأغـلال والأثقال والأصنام ، والناس ورائى على نفس الطريق كالسـيل . يغمرنى إحسـاس طازج بأننى جزء من الكون الضخم اللامحـدود ، واحس أننى أذوب .. اضحى قطرة وسط هذا السيل الجارف المنهمر .. هذا الذى يتبدى كظاهرة كونية .. أذوب وأمتزج.. كذرة الهواء.. كـقطرة الماء . ويبقى لى تفردى .. نشوتى وعـذاب عشقى .. والسـيل جـارف ومنهمـر . يكتـسح المكان . يفـيض فـتتـحطم السـدود .. يتـراقص السيل فى المجـرى كالثـمّـل .. يلمس الضـفاف ويهـدر بالموج .. وينساب فى الشقوق .. يغطى الحصى والسهل ويطلق الأنغام .

السـيل أدرك منبعـه .. فهل يدرك مـسراه ؟ وهل يسـتقـيم إلى المصب؟ أتثمـر أيها السيل وردا يتنفس ؟ وربيـعا ينشر الخضـرة ؟ وبراعم تضحك ؟ ونفوسـا تنفعـل ؟ أفى انسيابـك - حين يواتيك المجرى - يتـساوى القـصر والكوخ ، والبيت والحصن ، والوادى والتـلال ، ويتسـاوى البشـر ؟ أتعود الضـحكة ، وتتفرد الوجـوه ، وتزول العبـسة ؟ أدرك أنه مـوجود .. تجـسم وجوده وانتشر كالشمس كالقمر .. كالنجوم . أضحى كحركة الأفلاك فى السـماء ، كـسريان الهـواء ، كزخم الأنـفاس الصـاهدة المكتومـة ، وحرقـة الآهات المحترقـة . أحس بلمسه يدغدغنى .. يغمـرنى .. يطهرنى .. يلعب فـوق جسـدى ، يمتص رحيـقى . أراه زاحفـا حين أسيـر ، وحين أجلس أو أنام.. أسمع وقع قدميه فى كل خطوة تدب .. يصلنى الصدى كنفثة عاشق، كعطر الوردة المبثوث .. فاجأها القطـْـر ..

من قال أن فى العـشق مهانة ؟ أتجـيب أيها السيـل ؟ أجب وقل بالعشق

وضح اللغز .

أدور فى المكان واختبئ ، أسمع الصياح والضجة .. وهم يبحثون . فساعدهم أيها السيل على الوصول .

أعرف أنه موجود .. «أيتها الجارية» الصوت يرن ، وانتفض . أكاد أستدير ، أتلفت إلى الوراء ، أعرف أنه موجود . السماء بنجومها المرصعة تضحك له . والأرض الممتدة تمتلئ به . والكون يحمل صلابته .

وقلبى مضخة هواء مرشوش بالعطر .. تلتقط أذناى دقات قلبه ، أصبح الصوت المبثوث خلفى نبضات قلبى ، تشابه كل شيء ، الجسد ، الحرارة ، الرائحة ، اللون ، والدم المنساب فى العروق . تشابه الكل ، وأضحى جسدا واحدا .. لقد طرت .. ومشيت ، وغصت .. فانهدم البيت ، أيصبح المستحيل ممكنا ؟ ويعود البناء ، ويحل الرواء !

ألمحه من بعيد خيالا يتحدد . تصل أذنى كلماته.. كأنما يتحدث بلسانى.

أحدَث التوحد ؟ .. أيمكن أن يأتى ؟ أيعثر على ؟ والمكان يلفه الصمت، وتحتضنه الخلْفاء ، أيمكن أن يجيء .. ويهتدى إلى فيعيد للمكان الذى فقد الحركة ، حركته؟ .

ترى ماذا تفعل الآن يا من أشعلتَ النار وأحرقتَ القلب ؟

٣٦

- أنا .. أنا ..

حملت الأنا حسيسا داخليا مقهورا .. صاح بحدة .

- من أنا ؟

لم ينتبه إليه أحد ، الكل مشغول ، العقول ، والقلوب والعيون ،

والآذان. الصدور تعلو ونهبط ، والاكتفاء تتهدل ، والعيون كبَت فيها النظرة. فالليل دهمهم ، ولم يعثروا عليها بعد .. كان الحزن غويطا وهائلا.. يطفر على الملامح ويلاصق الأجسام .. والشعور بالذنب يحركهم .. ويلوى عليهم قلوبهم . هربت . جاءتهم .. وذابت .. ولم يهتدوا إليها .. بدا الكون كله فى أعينهم معتما ومظلما .. وحانت اللحظة القاسية .

لا مفر من الرجوع . ففى الليل ينبث رجال القصر ويفتكون . كانت قاماتهم منحنية ، ورءوسهم مدلاة على الصدور . والتوت الأعناق كغصن ناشف مقصوف وتسحبوا .. الأرجل أكياس ملح .. والخطوات مزروعة .

- أنا .. أنا ..

رأوا رجلا يرفع السوط ويلسع الفراغ ، يستدير ويطوق رأسه .يقفز ويلفه على وسطه ، يرفع ساقه ، وينهال عليها . تحلقوه .. توقف .. غطته البلاهة فاندهشوا جامدين . بكى فهزوا رءوسهم ، تملاهم وارتجف ، طوح بالسوط مرات ومرات . أصابت ذؤابة السوط أنف رجل ، فتشابكا .. قال رجل يحجز بين الاثنين (مجنون) .. صرخ .. وظل يصرخ :

- أنا السيد .. أنا السيد .

ضحك الناس .. ثم اغتموا لما آل إليه أمر العباد .

تنطط بينهم . والجزع يلون ملامحه ويضغطها .

- حذرونى من العامة .

ازدادوا منه قربا .. ودققوا النظر .. مط رقبته ودار بينهم وقال :

- أنا السيد .. صدقونى .

كادوا يضحكون .. لولا صوت ارتفع فجأة وقال :

- يخيل إليّ أنه هو ..

بصت العيون محملقة على حين واصل الصياح :

- أنا .. السيد .. أنا ..

همس واحد لآخر بان الجنون أصبح ظاهرة كونية. أخذته الشفقة وقال:

- نعم .. أنت السيد .

- ابتسم السيد ، وكوم السوط فى يده .

- سأعطيك جائزة .. ما اسمك ؟

ضج المكان بالضحكات .. واختلطت الأذرع فى حركة الدهشة .. توجه إليهم .. ورشحت من عينيه الذلة مبلولة ولزجة .

- (لا تختلطْ بالعامة

- لا تدعُهم لوليمة

- لا تتقربْ منهم .

- ولا تجعلْهم يتقربون منك

- السجن فيه الكفاية

- والسوط فى اليد

- أنت سيد البلاد

- الكل يدينُ لك

- والأرض ملكك

- والخير كله لك ..) .

واهتز الجلد .. وانتفض الـدم فى العروق . وتسلل العرق حثيـثا .. حتى أضحى حبّات مكتنزة .. ثم سقطت مترعة بالملوحة.

- لكن المحـبوبـة هبّت فى وجهى .. حـسـبتُهـا دانت ، لكنهـا ذابت .. تصوروا .. قـالت .. خطأ .. ما تـفعله خطأ . تصـوروا .. تصوروا يا عـامة القوم جاريتى تقول لى خطأ .. خطأ أيها السيد ، انعزالك عن العامة خطأ .. وخطيئة .. قولوا لى أنتم يا عامة القوم .. ما معنى ما قالته الجارية ؟ ..

- إن كانت قالته فهو صحيح ؟

- وإن كنت السيد ، فأنت مخطئ .

- هذا إن كان ! !

مد يديه .. فسـقط السوط من يده .. فرش أصابعـه .. ربت على صدور الجمع ..

- ألا تصدقوننى ؟

- ما رأينا سيدا يصنع صنيعك .

- اعذرونى .. فإن المحبوبة هربت .. ألـم تعثروا عليها ؟

- ليس بعد .

- سيُعثر عليها حتما .

- كيف وأنتم أحباؤها .

- نحن ؟

- اسمـعوا مـا قالت وهى تواجهنى . مـحبـوبتى هربت . إنهـم ينتظرون هروبها .. ليقفزوا .

- ماذا قالت .

- قالت لا تكن قاسيا على العامة فيعزلوك من قلوبهم ، القلوب تيجان الملوك ..أفيكم من يفسر قولها ؟ قولوا ولا تخشوا منى .

نهكم واحد وقال

- هذا إن كنت السيد بحق .

هاله الأمر وأفزعه فصرخ فى حدة :

- بل أنا السيد .

- لا يهم .. استمر فالأمر شيّق .

- لن أستمر ما لم تفسروا لى .

تقدم واحد منهم ، وضع كفيه على كتفى الرجل .. ونطق متأنيا .

- إذا انعزل السيد عن العامة وهم أصل الملْـك .. هان عندهم .. علا.. أو كبا .

هلل الناس وصفقوا .. وتسحبوا ومضوا . عاودهم الحزن والقلق ، نشب الخوف فى القلوب ، وظل الأمل فى العثور عليها أملا تحوطه المخاوف والآلام . استدار واحد إلى الرجل .. السيد .. مغيظا ومحنقا .. قال فى سخرية يدمع منها الألم .

- هذا إن كنت السيد بحق .

وبكى .. وتمزق قلبه . أدرك أن التجاهل خنجر صدئْ مغروز فى القلب ، وأن التاج أضحى عاريا وباردا . فالدم الحار الذى أدفأه .. ولّى وانسرب . وداهمه الألم .. وغشيته موجة من النشيج .. فأسرع ومضى بعيدا عن الجمع وكانت قدماه تتبادلان القفز دون المساس بالأرض .

٣٧

تحسست الخطى ، والشريط ضيق ، والبراح بعيد عن العمران . امتد البراح صامتا وموغلا فى البعد ، لكنه قريب ، واقع فى القلب .. والقلب .. قلبها وقلب الأشياء ، يحدد لها الشكل ، ويعطى الكون كله لونا وحركة وحجما .. ومعنى .. ويعطيه النبض .. حتى يبدو نبض الكون مبثوثا فى سكون الليل.. وصمته وكأنه آلاف الملايين من أصوات مهموسة خافتة ، لا تبين ، تصنع الصمت ، وتصنع الليل ، وتعزف للكون على قيثار الوجود .

وينبت من الأقبية المشرعة أمامها هسيس موصول بحركة الكون وسير الأفلاك .. وتسقط النجوم فى عينيها موجة إثر موجة ، ويظل اللمعان الخاطف كالشهاب مرصودا وباقيا .. كهبات نسيم الصبا ، كدفقات العطر ، كنفثات الورد ، كزخات المطر .. كأنفاس الثمل من سكرة الحضرة ..

مرق كالشهاب ضوء باهر ثم اختفى فتعلق به البصر . أحستْ بلسعة تسرى فى دمها وتصل إلى القلب ، تخيلت أن النور صبَّ وهجه واستقر ..

(آه يا قلبى .. ياخصيمى وناصرى . كم غفلت عنك ؟ لماذا ظللتُ العمر طوله أخاصمك ، حتى تراءى لى أننى بلا وطن ، حملتنى روح الأيام من باب إلى باب .. وشاهدت الظلم معقودا على الجباه . أدركت أن المحنة واحدة ، وأن الوجود يتبدى فى الكل . ولعنت نفسى فى التو . وطاوعتنى.. جئتَ يا قلب مزغردا كطائر الصباح ، فتحت كوة صدرى وأطللت تنشق نفثة الفجر . أنت تعلم يا قلب أننى ما اخترت دنّ الخمر ولا قصدت الأنس.. وهأنذا عدت واخترت .. فابق يا قلب على صهد الوجد حتى افتح

الباب ، واهدم السدود .. وافرش الضحكة علـى الوجوه واعقد على الجبين أملا يورق .

وانت يا من دفـعـتنى وقـدْت قلبى ، عد وقـدنى إلى مـوطنى ، فـإنى لا يتراءى لى وطن . أيـها الخفـيف الروح .. يا من عزفت بمزهرالوجـد عدْ .. فلقـد أوغلت .. أعرنى نظرة مـنك حتى أرى وراء البـيوت ، وتحت الرمـاد حدائق ورد .. لا تطل وعد) .

٣٨

استوحش المكان ، تراجعت الأصـوات ، وخفت الضجة التى تتـبعـها ، فـعاودها القلق ، وانشب الخـوف مخلـبه فعصر القلب .. رغم الفرحة الطاغية .. بميلاد نبت طرى يعـافر الأرض وينطلق . الـوحدة والصـمت والوحـشة والقلق ، وهسـيس الأقبية ووشوشات النجوم وخبطات الهـوام .. والضجة تختفى ، أصمتوا ؟ أتراجعوا ؟ أخافوا ؟ ما بال القوم لا يصلون ؟

أحكمت غلالتها حول جسدها . قـبضت أعوادا من نبات الحلفاء حادة الشوك كرءوس الإبر .. وقادتها قدماها إلى الجـسـر ، وكان قلبها يضيء لها بذلك النور الذى سكن واسـتـقر . عبرت الجـسر واتجهت صوب القـصر .. وقفت على مشارفه ، وقاربت الحجرة النائيـة ، محبسها القديم .. تعسست الطريق وتقدمت . كانت الطاقة الصغيـرة بالجدار لا تزال مفتوحة ، والباب موصـدا . تناثرت أمام عـينيها ذؤابات ضـوء فحدثت نـفسهـا بأن الجوارى ينتظرْن ، وأن المبخرة تحرق عصفرها وعودها ..

وأن الطبال يدق والعازفة تختبـر رنة المزهر ، والحاشية تتحلق منتظرة ..

وأنه لن يعـود وإن عاد فخـائر القوى ، مـسلوب الفؤاد . صويت نـظرتها ، وكانت النظرة ساهمة ، فمتى تكـسر الجوارى المزاهر ؟ ومتى ينفض السامر وتنكسـر الحـاشيـة ؟ مدت يـدها ومسـحت على البـاب . التـقطت حجـرا ورسمت ، علقت عودا من نبـات الحلفاء .. وكرت راجعة . عبـرت الجسر ثانية فى الاتجـاه المعاكس ، بدت البيـوت وسط خيمـة الليل أقبيـة متناثرة .. ومدت يدها .. وبـسطت كفهـا ، فردت الأصـابع ، قبضـتهـا ، كأنما تود أن تتجمع فى الكف الخيوط وتنطلق ..

مسحت البـيوت بيتا .. بيتا ، اليـد ترسم وعود الحلفاء يعلّـق .. والليل يوشك أن يرحل . تأكـدت من أنـها مـسـحت كـل الأبواب ، وعلقت كل الأعواد ، ما نسيت دارا ولا قبوا .. ورجـعت .. والقمر البازغ يرسل ضوءه المنسكب خـافتـا ، ومرتعشـا . كانت العـتمـة تأكل نصف وجهـه ، ونصف ابتسامته .. وقفت .. وارتعشت فتناجت .

(يا من جـعلت الكون بنورك خـمـائل سوسـن وبعثت النـور فأحـرقت القلب ، وهتكت الـستر ، هبْ لحـفنتك المخلوقـة من تراب .. رضى القلب وجوهره ، ولتكن صيحات المحزونين عزفه ونبضه ، خمره وسكره ، وأطلقْ فى الكبد المحروقة آهة العشق) ..

واذن الليل بالرحيل ، وتنفس الفجـر ، وأنهت دورتها . قطعت الشريط، وعـادت إلى مكانها .. الـصمت والوحـدة والحلفـاء ، والقلق والانتظار .. ولهفة الأذن لالتقاط أصوات الضجـة من جديد . ولاح أمامها البراح ينفض عنه ستار الليل ، ووشوشات الصبـاح تغافله ، وهمسات الفجر تشع بالنور وتستنهضه .

٣٩

حـاول النوم فلم يسـتطع ، تقلب على الحـصـيـر ، على الظهر والبطن ، على الجانب الأيمن والأيسـر .. شعر بأن أعواد الحـصيرة شوك . حـدّث نفسـه بـأن الجسـم تهدّم وما عاد يحـتمل . نظر إلى الأولاد .. هز رأسه وكان الحنين يطفـو من عينيه وكانت النظرة حزينة .

واستعصى عليه النوم . إزاح الحرام ، نهض وأدى الصلاة . سحب فأسه وألقى نظرة أخيرة عليهم . الـوجوه مزمومة ، يد الصغير مـدفوسة فى صدر أمه ، ساق البنت عارية ، ذراع الأم مرمية عليهم .. أحكم الغطاء .. أحست به فرفعت رأسها .

- الفجرطلع !

- وصليت .

- شربت الشاى ؟

- لم أعثر على السكر

استندت على كوعها وتثاءبت ..

- نسيت أشترى

همّت من رقدتها فبادرها

- نامى فالوقت مبكر

- البركة فى البكور.. واليوم السوق.. وعسانا نحصل على ثمن الشاى.

- ألا يأتى اليوم ونأكل البيض الذى تبيعينه دائما ؟

أحكمت الغطاء على الأولاد وقالت :

- الحمـد لله نحن أحسن من غيرنا .. تتوكل على الله وسآتى لك بالفطور .

- هاتى الأولاد معك .. فقد نعزق الغيط .

صفق البـاب فأحدث صخبا ، تأكد من غلقه وفى اللحظة التى استدار فيها جمد فى مكانه، وظل واقفا متيبسا، رمى رأسه إلى الخلف ولم يصدق.. راعه الأمر فاندهش . لمح هلالاً مرسوما على البـاب ، وعود حلفاء مغروزا فى فتحة المفتاح . حدق فى الهلال والعود وطأطأ رأسه، وزم شفتيه .

- اللهم اجعله خيرا .

سحب نفسه وخطواته تتلكأ على الزقاق ..

- من يفعلها ؟

رمى بصره على الأرض ذاهلا .

- ولماذا يقصدنى أنا ؟

تنبّه أنه يمر بالدور وأمامه الأبواب . على غير عادة منه دقق النظر ، فلاح أمامه .. الهلال مرسوما وعود الحلفاء معلقا .. أسرع عاديا ، مسح الأبواب كلها .. فهاله الأمر .. استدار وعاد إلى بيته .. وعقله لا يصدق وقلبه لا يقوى على كبح انفعاله .

٤٠

أسرعت إلى الباب وفتحته ، تملت الباب وفرحت ، انسكبت الفرحة فاهتزت أعطافها .. تنططت ورقصت .. دارت حول نفسها وقفزت .. كادت تطير .. ودت لو

تطير .. فتباشير الخير قادمة.. ونفثة الفجر تحمل الأمل. رمقتها أمها غاضبة.

- أأنت بنت عاقلة ؟

لم تسمع ، دوامة الفرح تجرفها وتأخذها بعيدا .. صرخت أمها .

- أهذا وقته ؟

ردت فى نغم ممطوط والجسد يرقص ويهتز ..

- بل جاء وقته .

نهرتها أمها بشدة

- اذهبى وخضى القشدة فاليوم السوق .

- ليس قبل أن ترى بنفسك .

- كفانى همّك .

- سيزول يا أمى .. قلبى يحدثنى بأن الهم سيزول .

جذبت يد أمـها ، وظلت تجذبهـا .. والأم تمانع وهى تجذبهـا .. نهضت فرات الهلال والحلفاء فصرخت .

- ألا يتركوننا فى حالنا !

ضحكت البنت وظلت تضحك ، قالت والثغر حبات بهجة .

- إنها هى .

- من ؟

- الجارية .

خبطت المرأة صدرها غير مصدقة .. وقالت :

- الجارية !

مسكت البنت يد أمها ودارت بها وظلت تدور .

- أخبرينى ما الحكاية ؟

- رأيتها الليلة يا أمى تحادثنى .. كانت تلبس ثيابا بيضاء على جبينها هلال يضيء .

- لا تحيرينى ! .

- لن نحتار .. لقد وعدتنى بزفاف طيب ، وبزوج مهيب وأعطتنى سنبلة الحنطة .

- زفاف طيب !! من أين ؟؟

سحبتها أمها ، والدهشة عالقة بوجهها .. والأمل فى القلب يسرى ، فلعل الأيام تجود !

٤١

وفُتحت الأبواب ، ورأت العيون ، واختلطت الأصوات، وارتفع الصياح حتى السماء وتنامى إليها الصوت مشروخا .. وقويا . لمست صدرها وابتسمت ،وخرج الناس من بيوتهم .. وتواجهوا . صرخ واحد فيهم :

- لم أنم .. فالحصيرة كانت كالشوك .. أفيكم من نام ؟

همهم الجمع فى صوت واحد مختلط .

- ومن منا نام ؟

- لو نتعرف على من فعل ذلك ؟

- المحير فى الأمر .

قاطعه رجل بسرعة اللهاث الذى يخنقه .

- كيف يجتمع الهلال وعود الحلفاء .

- أو تعرف الفاعل ؟

- ما معنى الأمر كله ؟

- إنى أراه عبثا ..

نطقوا جميعا فى صوت واحد

- لا بل هو الجد كله .

- لكن ..بم تفسرونه ؟

أزاحت المرأة من حولها .. بصت فى عيونهم عينا ، عينا ، شدت جذعها ، وطوحت بطرحتها .. أحست بتميز فقالت :

- لقد رأيتها .

أحاطها الجمع .. نطقوا فى نفس واحد :

- من ؟

- جائتنى فى المنام .. وكان على جبينها الهلال مخنوقا

- من ؟

- كانت تجاهد .

دارت حول نفسها وزغردت

- مدت إلىّ يديها الاثنتين .

- من ؟

وتلون صوتها بالحزن

- وحين استيقظت لم أجدها .

- قولى من .. ولا تتعبينا .

تفـرست في وجوههـم .. وجهـا وجهـا .. لزمت الصـمت لحظة .. ثم نطقت .

- الجارية .

فتل شيخ لحيته وقال فى تلطف .

- يا مبدع الكون .

- ولكننا لم نجدها .. فكيف زارتك ؟

- فى المنام !!

لمحهم الرجل بأسـماله الخلقـة ، وعصاه المشـرعة .. قال وهو يتـحسس قارورة الجاز المنبعجة .

- رأيت الهلال مخنوقا على الأبواب .

صاح الجمع

- حقا لقد رأيناه على الأبواب .

- كان مخنوقا .. ويطلب من يفك خناقه .

حشرت طفلة نفسها بين القوم .

- بنات الحور تخنق الهلال .

رفع الشيخ صوته وقال :

- لندع الله أن يفك الأغلال .

ضحك صاحب الأسمال ورفع عصاه .. ثم صرخ فى حدة :

- الهلال مخنوق يا أولاد الهرمة .. ألا تدركون ؟ أم أنكم نسيتم ؟

نتر واحد من الجموع نفسه وقال :

- إنها الجارية .. إنها تدعونا فلنبحث عنها .

رددت الجموع بصوت كالرعد ..

- فلنبحث عنها .. ولنداوم البحث .

ألقى صاحب الحال عصاه ، ورمى بقارورة الجاز ، فلم يعد فى حاجة إلى النار يشعلها لتضيء .. وابتسم لهم وضحك . وتابعهم يبحث .

٤٢

ضحك ، ثم بكى ، حين رأى الجموع توزعت .. وهرولت للبحث .

شعرتْ بالتوزع ، فرأتْ فى الشتات تجمعا .. ففرحت وظلت تحدق فى السماء .. وتسلل الصوت فخرق الظلمة ورج الهمود ..

(ما جهلت مذ عرفت ، ولا فترت مذ خدمت ، ولا قطعت مذ وصلت)

توافقت الحركة الساكنة مع هزة الصوت وعمق الأداء .. فبدا الكون مقروءا .. لوحت بيدها تجاه العمران .. وكان الفرح شاملا وجليلا .

(إن تعذبنى فأنا لك محبة .. وإن ترحمنى فأنا لك محبة) .. اقترب منها .. تقدم نحوها .. فصرخت فرحة

- أنت ؟

- نعم .

- لقد غبتَ كثيرا .

- انتظرتُك حتى تتمى العمل .

وتنهد فى فرح مُبهج .

- كان تمهيد الطريق عسيرا .

- لكنهم عرفوا طريقهم .

- ما كان لخبطة اليد فعل السحر ، ولا لعود الحلفاء هذا السر الخفى ..
إنما نحن عشاق .

- أو كنت تدرى ؟

- ما فارقتنى لحظة .

- لكنك قادم لتوك .

- أتصورت أننى أجهل مكانك ؟

- أو عرفت ؟

- فقط .. لم أخبرهم .

- لم ؟

- حتى يجدّوا فى البحث .

- أيعثرون عليّ ؟

- نعم .

- إنى أخاف هذه اللحظة .. بقدر شوقى إليها .

- أتخشينهم ؟

- أخاف أن أهتز فى عيونهم .

- لا يستقيم وجودنا بدونك .

- يا له من شرف !

- فلنصنع نحن خميلتنا حتى يعود لطائر العمر تغريده .

- أما كفانا .

- نحن لم نبدأ بعد ..

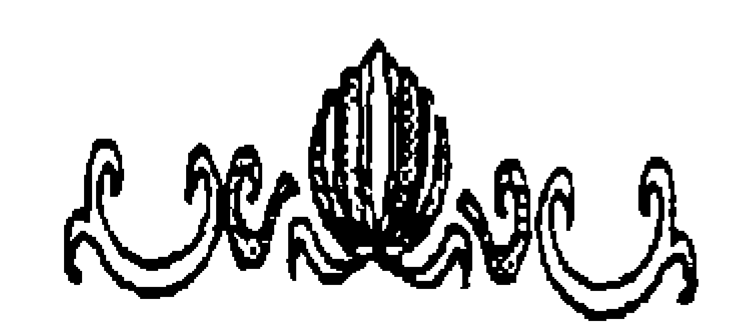
- إذن سنعود .

- نعم ستعودين .. ستعودين . يضحك لك القمر ، ويصطفق النهر وسآخذك فى صدرى ، حتى يورق قلبانا نبتا أخضر .. وفلا أبيض .. ويفيض من القلب .. ويروى النفوس العطشى .. ويطفئ الظمأ .

- وهم ؟!

- إنهم يداوون جراحهم بأنفسهم فلا تقلقى .

وضمها إلى صدره فجفل الصمت ، وتمزق السكون ، واهتزت نجمة السماء وتألقت .



صدر للكاتب

*** دراسات أدبية :**

١ - نظرات فى قصص القرآن (١) رابطة العالم الإسلامى

٢ - نظرات فى قصص القرآن (٢) رابطة العالم الإسلامى

٣ - نظرات فى قصص القران (٣) رابطة العالم الإسلامى

٤ - من جماليات التصوير فى القرآن (١) رابطة العالم الإسلامى

٥ - من جماليات النصوير فى القرآن (٢) رابطة العالم الإسلامى

٦ - القصة فى القرآن هيئة قصور الثقافة

٧ - صورة المرأة فى قصص القرآن مكتبة الحلبى للنشر

٨ - الذات والموضوع هيئة الكتاب

*** دراسات نقدية ..**

٩- قراءة فى القصة القصيرة هيئة الكتاب

١٠ - محمود البدوى عاشق القصة القصيرة هيئة الكتاب

١١ - الفن والبساطة دار الشعب

١٢ - الرؤى والأحلام هيئة الكتاب

*** الإبـــــداع ..**

١٣ - الخروج إلى النبع **رواية** طبعة أولى دار الحرية ، ١٩٨٣

طبعة ثانية مركز الحضارة العربية ، يناير١٩٩٨

١٤ - السيد الذى رحل **رواية** هيئة الكتاب

١٥ - من يقتل الحب **قصص قصيرة** هيئة الكتاب

١٦ - المـــــدار **مسرحية** هيئة الكتاب

١٧ - الضوء والظلال **رواية** هيئة قصور الثقافة

١٨ - صــدأ القلوب **مجموعة قصصية** هيئة قصور الثقافة



٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

الخروج إلى النبع

«وانسكب النور فامتلأ النبع وفاض
.. يرشنى الضياء .. ويغسلنى
الوهج ، ويفور من داخلى نهر الحب
.. والمنبع الذى غاض يمتلئ ،
يترقرق سناً وسناء .. ينور عارجاً
إلى السماء .. بل إننى أكاد ألمح
السماء تنحنى عليه فى وداعة وحب
... والقلب حين يكتوى بالنور
ينصهر ، ويبقى شق العناء» ..

◆

